القصص الهادف

الشيخ منصور الرفاعى عبيد
وكيل وزارة الأوقاف الأسبق
للمساجد وشئون القرآن

الدار الثقافية للنشر

عنوان الكتاب : القصص الهادف
اسم المؤلف : منصور الرفاعي عبيد
14 × 20 سم . 84 ص .
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : 2000/15288
اسم الناشر : الدار الثقافية للنشر

Al Kassess Al Hadef
Manssour Obeid
14 x 20 cm. 84 p.
ISBN: 977-339-011-X

الطبعة الأولى
1421 هـ/ 2001 م

الدار الثقافية للنشر - القاهرة
ص.ب 134 بانوراما أكتوبر 11811 - تليفاكس 4027157 - 4172769
Email: sales @thakafia.com

الإهـــــداء

إلى الابن العزيز أحمد :

من وحي حديثك معي يا بني ، وبعد عام من فراقك حيث غاب شبحك عني ولم تختف صورتك ليالي قضيناها ، وكان حديثك معي حديث الإنسان إلى نفسه ولقد اختطفتك يد المنية من بين يدي ، واحتسبتك عند ربك لأن إليه الرجعى .

لقد مضيت مرضيًا عنك وتركتني أعتصر آلام الفرقة وحسبي أنني أضرع إلى الله أن يلهمني صبرًا أستعين به على المضي بقية الأيام .

لقد كنت أعدك لتخفف عني حملا يعلم الله ثقله على ظهري ، وكنت أنت تقول أسأل الله أن يقوي ظهرك على ما أنت قادم عليه فإننا نخضع لإرادة الله الذي لا راد لمشيئته ونرضى بقضائه وقدره .

واليوم ذكرى رحيلك أردت أن يكون حديثي معك مسطوراً فكم كنت تسامرني الليالي وتلح في سماع هذا اللون من القصص المحبب إلى نفسك .

لقد كتبت هذا وكل سطر أتمثلك تجلس معي تتابع عملي حتى إذا انتصف الليل سمعت أذني صوتك تقول : عمي . أستريح عند ذلك دمعت عيني شوقا إليك وتمثلت بقول القائل :

ما كنت أعلم أني سوف أنعيه   وأن شعري إلى الدنيا سيرثيه
وأنني سوف أبقى بعد فرقته   حيا أمزق روحي في مراثيه

من حقك على يا بنى أن أترحم عليك لذلك أهديت إلى روحك هذا السفر القصصى لتحيا بين سطوره لأنه وحى حديثك فى الليالى الخوالى .

والدك

منصــــور

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد..

فإن القصة من الأمور المحببة إلى النفس. يجد فيها الإنسان متعة فكرية وخاصة إذا اتفقت مع ميوله ورغباته.

والإنسان منا مجموعة من الأحاسيس والمشاعر، وهذه الأحاسيس والمشاعر يكتسبها المرء من البيئة التى يحيا فيها، وتؤثر فيه توجيها وسلوكا.

والقصة من شأنها أن ترسم أمام الإنسان طريق الخطأ وطريق الصواب، ومن أهدافها تصحيح الخطأ، وتأكيد الصواب. كما أنها تعمل على تنمية فكر معين يكتسبه الإنسان من قراءاته، وخاصة إذا كانت القصة هادفة لغرس مبادئ سامية، وانتزاع فكر فاسد بعد أن وضح السبيل وظهر العلاج.

ولقد حفل القرآن الكريم بكثير من القصص الهادف الذى يعالج مشاكل المجتمع الإنسانى، ويوضح معالم الطريق السوى، ويضرب المثل بمن أصروا على التمسك بالقيم الفاسدة والأخلاق الوضيعة. ماذا كانت نهايتهم؟ والمصير الذى صاروا إليه؟

إن القرآن وهو يقص علينا هذا اللون من القصص يهدف إلى أخذ العبرة من النهاية لأبطال القصة التى ساقها . مبينا الأحداث التى مرت بهـا أطوارها ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف : ١١١]

ولو أننا بسطنا المصحف أمام أنظارنا . لوجدنا أمراض المجتمع الخلقية وأوبئته النفسية التى حطمت المجتمعات السابقة ، وكانت عوامل هدم فى صرح الحضارة- قص القرآن الكريم علينا قصصهم وبين خطوات الانحراف فى مسارهم ، وكأنه بذلك يدق ناقوس الخطر فوق رؤوسنا ويقول : تنبهوا أيها الناس . لا تمشوا فى هذا الطريق ، ولا تفعلوا هذه الأفعال التى كانت سببًا فى زوال النعمة عن القوم الظالمين ؛ ولكن عليكم أن تسلكوا مسالك الأطهار ، وتسيروا سيرة الأبرار ، وأن تهتدوا بهداهم ، وتقتدوا بهم ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام : ٩٠] .

وقصص القرآن صدق كله ، وهادف لغاية نبيلة ، ومرشد إلى قيم أخلاقية فاضلة ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ﴾ [آل عمران : ٦٢] . ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [يوسف : ١١١] .

والإنسانية اليوم قد كثر فيها القصاصون الذين يسيرون مع الهوى ويخدمون الغرائز الإنسانية ، ولا يراعون حرمة بيت ، ولا صيانة عرض .

وقد أقبل القراء على قصصهم يتهافتون عليها وهم لا يعرفون أنهم

بقراءتهم لهذه القصص الهابطة إنما يتجرعون السم الزعاف الذى يقضى على مقوماتهم الأخلاقية، ويحرك فيهم عوامل الشر وينمى أحط الغرائز وأدناها، نقول لهم تعالوا إلى القرآن ففيه الخير والرشاد.

الإبداع الفنى فى قصص القرآن:

والإبداع الفنى فى قصص القرآن الكريم أمر متفق عليه من الجميع، وتعد القصة القرآنية أول قصة ملتزمة عرفها الأدب العربى بما تهدف إليه من دعوة إلى توحيد الله، وبما تحث عليه من خلق قويم، وتنهى عن الفساد والانحراف، وبما تبثه من أدلة على صدق ما جاء به الرسول ﷺ - وأسلوب القصة فى القرآن هو اختياره للقطات حية من الوقائع التاريخية بأسلوب يبعث فيها الحياة، ويجعلها كأنها ماثلة أمام العيون، والتصوير الفنى فى القرآن هو الأداة المفضلة فى عرض قصصه، فهو يعبر بالصورة المحسوسة المتخيلة عن المعنى الذهنى والحالة النفسية، ثم يرتقى بالصورة التى يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، والحركة المتجددة، بما لكل ذلك من سمات الانفعالات بشتى الوجدانات التى تتسق مع الحوادث مع ترابط العناصر المألوفة للقصة من أحداث وأشخاص وحوار وارتباط مكانى وترتيب زمانى.

تكرار القصة:

وتكرار القصة فى القرآن الكريم يخدم الغرض الأساسى للدعوة الإسلامية لأن علماء النفس يقولون: إنه متى كثر تكرار أمر تولد تيار فكرى وعاطفى. يتلوه ذلك المؤثر العظيم فى الأفراد والجماعات. من هنا كان التكرار لغرضين أساسيين:

١ – غرض فني يتمثل في تجدد الأسلوب والتفنن في عرض القصة إيجازًا وإطنابًا .

٢ – غرض نفسي بما للتكرير من تأثير في النفوس .

لذلك : لما كانت القصة تجذب النفوس وتستولي على الأفئدة ، وتشد الانتباه ، فقد اهتم بها القرآن وأبرزها في الكثير من سوره ، وقال الحق سبحانه مبينا ذلك ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [يوسف : ٣] .

والقصة في القرآن تحكي وقائع محت الدهور معالمها ، وليس لأحد علم بها ؛ كقول الحق سبحانه ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود : ٤٩] . وتنبيء بوقائع مستقبلة لم تكن حين نزوله تمت ولا حدثت . كقوله سبحانه ﴿ الم ۝ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ﴾ [الروم : ١-٤] .

اللغة العربية:

إن القرآن الكريم كتاب الوجود كله ، وهو كنز اللغة العربية التي هي ميراث الأجداد وتراث الآباء وخير ما يهدى للأبناء .

واللغة العربية توسع المدارك ، وتصقل المواهب ، وهي عنوان حضارة ماض مجيد ، وحاضر مزهر ، وكل أمة لها لغة تعتز بها وتحرص على تلقينها للأبناء ، وتوصيهم أن يحافظوا عليها . لأنها سجل حضارتهم .

واللغة العربية كنوزها متعددة، وحروفها متكاملة. لذلك خلدها القرآن الكريم بأن نزل بها، فأضفى عليها شرفًا وقدرًا.

ونحن أبناء العرب وحفدتهم فإذا كانوا هم حافظوا على هذا التراث فلنكن نحن الأوفياء للغتنا الجميلة.

ومن المعلوم أن اللسان العربى ضعف فى الأيام الأخيرة حيث تعددت اللهجات، والتوت الألسن، وضعفت الملكات.

لذلك فإن علينا أن نعود إلى اللغة العربية نحفظها لأبنائنا ليشعروا بالانتماء إلى مجتمعهم، والالتصاق بماضى آبائهم. لأنها مع ذلك تنمى فيهم التذوق الجمالى والإحساس الفنى، والإبداع فى تصوير العبارة بلغة سليمة واضحة اللفظ مشرقة المعنى، والقرآن الكريم حوى اللغة العربية بين دفيته، وأضفى عليها الخلود والبقاء، وفى تحفيظه لأبنائنا تقويم لألسنتهم، وتهذيب لوجدانهم، وصقل لمواهبهم، وتنمية الإحساس بالتذوق الجمالى، وشعورهم بالانتماء إلى الأمة العربية، وفى ذلك خير عظيم.

والذى بين يديك ثلاث قصص. . الأولى من القرآن الكريم؛ وهى تبين بإيضاح كيف أن عمل الإحسان يحفظ المال وينميه ويبارك فيه. والثانية «حديث نبوى» يتبين منه كيف أن العمل الصالح ينجى صاحبه من المهالك.

والقصة الثالثة؛ لشخص عظيم سيد قومه له شعبية من الجماهير، تحبه وتثق به لنزاهته وأمانته، ومع كل ذلك لم يقبل أن يجامل على حساب الحق الذى آمن به.

نقص هذا على شبابنا ليكون نبراسا لهم في حياتهم، وضوءا هاديا على طريق الخير الذى يوصل إلى سعادة الدنيا وفلاح الآخرة. نسأل الله أن ينفع به قارئه، وأن يتقبل ذلك منا ويجعله فى ميزان حسناتنا.

ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم.

القاهرة فى غرة شعبان ١٤٢١هـ

منصور الرفاعي عبيد

الفصل الأول
أصحاب الجنة

(١)

جلس أهل القرية يتحدثون عن الشيخ (محمد) الذى عاش بينهم رجلاً طيبًا صالحًا يتردد على المسجد يصلى بين الناس ثم يخرج فيشارك الناس فى أفراحهم وأتراحهم، ويتوجه إلى حقله يزرع ويرعى زراعته. يقلم أشجار حدائقه، ويزيل الحشائش الضارة بمزروعاته. يباشر السقى والحرث، وإبادة الحشرات الضارة بأشجار القطن وما شاكل ذلك، وفى نفس الوقت عنده قطيع من الأغنام والأبقار والجمال. كل ذلك فى زيادة مستمرة.

وكل عام يشترى أراضى يضمها إلى أرضه، وتزداد الأعداد الهائلة من قطعان البقر والأغنام والجمال. ثم ها هى أرضه تجود بثمرها «فالبرتقال» جيد الصنف يقبل عليه التجار. «والمانجو» يتهافت عليه العديد من الذين يشترونه. والرجل رغم ثرائه وزيادة ماله. هو. هو، التواضع شيمته، لم ينقطع عن المسجد مهما كانت ظروفه. إلا إذا سافر خارج القرية. يألفه الناس جميعا. يذهبون إلى داره التى أفسح فيها حجرة كبيرة على يمين الداخل لأنه كان يتفاءل بالتيامن، ويقول عنه بأنه «سنة نبوية كريمة» والناس يجلسون فيها الساعات، فإذا أذن المؤذن: نهض الرجل الصالح فكان أول المتوجهين إلى المسجد. ثم يعود إلى جلسته الموقرة، فيقدم الطعام له، فيجلس الكبير والصغير، الغنى والفقير لأن مجلسه لا يفرق بين شخص وشخص أبدًا.

إذا دب الخلاف بين أسرتين . ارتضوه لهما حكمًا ، وإذا كان هناك دين هو سبب الخلاف تحمله بسماحة نفس ، وإن ماتت بقرة لأى أسرة فقيرة ليس فى استطاعتها شراء بديل عنها سارع فاشترى من ماله الخاص لتلك الأسرة بديلا عنها ، فإن أرادوا أن يحرروا كتابة بينه وبينهم قال لهم أنا راض لأن هذا هو حكم الله ولكننى اشتريتها لكم بنية المساعدة على أن تساعدوا أنتم غيركم من بعدى إذا نزلت بهم نازلة ، فإذا خلا بنفسه سمعناه يناجى ربه ويقول : «اللهم إن المال مالك- وأنا عبدك وهؤلاء عبيدك ، فأنا أعطيهم من مالك الذى عندى ، فإن كنت قد أخطأت فتجاوز عنى برحمتك وسامحنى يا أرحم الراحمين وإن كنت أصبت فلك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك .

العديد من أفراد القرية عمل عند هذا الرجل ، وكان يشاهد فى كل يوم وهو يتناول طعام الغذاء معهم ، يجلس فى وسطهم يحدثهم ويستمع إليهم وكلمة الشكر لله تتردد على لسانه وفمه فى كل حين . لقد ازدهرت حدائق الرجل وتعددت الثمار فيها ، وكان حديث الناس فى إعزاز وإكبار ، ومما لا شك فيه أن كل شخص له أحباب وله أعداء . ذلك لأن الإنسان لا يسلم من مادح وقادح ، لكن أعداءه لم يجدوا أي شيء يسيء إليه ، فكانوا يختلقون الأقاويل ، لكنهم لم يجدوا الآذان الصاغية ، وعلى هذا عاش الرجل حياته حديث أهل القرية يفزع إليه الناس إذا ألمت بهم الملمات .

(٢)

هناك فى القرية مكان واسع جداً يطلق عليه الناس «الجرن» ويقومون بدرس القمح فيه، وكل شخص له مكان محدود يدير عليه آلة الدرس حتى إذا انتهى وفصل التبن عن القمح وقاموا بتعبئته فى «الأشولة» رأى الناس هذا الرجل وهو يقسم من قمحه جزءاً كبيراً، ثم يوزعه فى الليل والناس نيام. بعضه على عماله الأوفياء والباقى كان يتحرى أفقر الناس من المسلمين الذين يترددون على المسجد وأصحاب العاهات التى تمنعهم عن العمل يوزع عليهم القمح، وكان يقول لعماله: الأرض التى تسقى بماء المطر والسيل وفيضان ماء النيل بلا تعب ولا إجهاد نخرج من نتاجها العشر. أما إذا كانت الأرض تسقى بالآلة وبالتعب والجهد، ففيها نصف العشر سواء كانت مزروعة ذرة أو قمحًا أو فولاً أو شعيراً أو فواكه أو أى شىء مما تنتجه الأرض، ويقول: إن الله أمرنا بذلك حيث قال: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١] . وإذا حدثه أحد بأن هذا كثير والفقراء يكفيهم القليل. كان يقول أنا وكيل عن رب العزة فى هذه الأموال ولقد قال الله فى حديثه القدسى: «المال مالى والأغنياء وكلائى، والفقراء عيالى فإذا بخل وكلائى بمالى على عيالى، أذقتهم وبالى ولا أبالى»- والدنيا عمرها قصير، والمال إلى زوال. إذن لابد أن نلتزم بالتوجيه الإلهى وأن نخرج زكاة أموالنا طيبة بها نفوسنا، سخية بها أيدينا، لا نمن بها على أحد بل الله يمن علينا أن هدانا للإيمان وهو سبحانه القائل: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ

عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ [التوبة : ١٠٣]، فالزكاة علاج لأمراضنا، وتحصين لأموالنا وحماية لأنفسنا.

(٣)

فى عام من الأعوام نزلت على الأرض الزراعية آفات أهلكت الحرث والنسل، وشاهد الناس دودة القطن وهى ترعى وتهلك أراضى بأكملها، وتجعلها جرداء قاحلة: ذهبت نضرة الخضرة من على العيدان، وذهب أصحاب هذه الأراضى يقاومون هذه الآفة الخطيرة بشتى أنواع المبيدات الحشرية فضلا عن «النقاوة باليد عن طريق الصبية والكبار» ولما لم تفلح هذه الوسائل فى إنقاذ محصولهم الرئيسى، هرعوا إلى المساجد يصلون ويضرعون إلى الله فى إنقاذ ثروتهم وهم فى قرارة أنفسهم يفكرون فيما نزل بهم ويستنجدون بالله أن يرفع عنهم هذا البلاء، وصدق الله العظيم ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾[الزمر : ٨].

وكما يقول القائل:

صلى وصام لأمر كان يطلبه   لما انقضى الأمر لا صلى ولا صاما

إن الناس لم يكونوا على صلة بالله فلما نزل عليهم العذاب كان تضرعهم إلى الله لرفع العذاب الذى حل بزراعتهم وأهلك الحرث والنسل. لكن أرض هذا الرجل الصالح المزكى المتصدق التقى، النقى، ظلت خضراء مزهرة لم تقترب منها تلك الحشرة المهلكة،

وذهب بعض أعدائه من الحاقدين الذين أكل الحقد قلوبهم، وأخذ بعض الديدان ورمى بها فى حقله لكن الحشرة أخذت تشق طريقها إلى حقول الأعداء ولم تمكث فى أرض الرجل الطيب الصالح أبدا ! وتعجب الناس وذهبوا إليه يسألونه ماذا فعلت فى أرضك؟ وأى دواء قضيت به على هذه الآفة الخطيرة؟ ومن أى مكان اشتريته؟ وبأى ثمن باهظ استطعت أن تصل إلى ما لم تصل نحن إليه للمحافظة على زراعتك؟ فما كان جوابه إلا أن قال: الدواء.. إننى أخرجت زكاتى من أول يوم أنعم الله على، ولجأت إلى الله وهو أرحم الراحمين، وقلت يا رب لقد التزمت بأمرك، ونفذت تعليماتك وأخرجت زكاة مالى طيبة بها نفسى، فاحم بها زراعتى، واحرس أرضى لأن لعيالك فيها نصيبًا. هذا الدواء اشتريته من (أجزاخانة) السماء لأن السماء تحمى من يتصل بها، وصدق الله العظيم: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]، فالذى يلتزم بما أمره الله فهو يرعاه ويحفظه ويحميه، وصدق الله العظيم: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] إننى صنت مالى حسبما أمرنى ربى.

(٤)

ذات صباح استيقظ أهل القرية على هذا الرجل وهو يجمع الأنعام التى عنده- وهى بحمد الله كثيرة:

(أ) البقر والجاموس أخذ يحصيها ويقوم بعدها ثم يختار من كل

ثلاثين بقرة؛ بقرة لها سنة من أجود ما عنده من البقر فإذا كانت أربعين يخرج بقرة له سنتان .

(ب) الجمال إذا بلغ عددها من خمسة إلى تسعة أخرج شاة من الضأن لا تقل سنها عن سنة ومن عشرة إلى أربع عشرة شاتان وهكذا حسب ما حدده الشرع الحنيف .

(ج) الغنم كذلك أخذ يحصيها ويعدها فلما وجدها بلغت أربعين : أخرج من أفضل الأنواع - شاة - وإن زادت إلى المائة والعشرين ففيها شاتان إلى أن تبلغ المائتين ، ففيها ثلاث شياه وهكذا .

(٥)

فى ليلة من الليالى المقمرة سهرت القرية تشهد فرح ولد من أولاد هذا الرجل وتحدث الناس عن الموائد التى نصبت والأطعمة التى قدمت ثم هذا المنظر الذى لا ينسى جماعة من أصحاب العاهات !! استقبلهم الرجل بحفاوة عظيمة أظهر لهم البشر وزاد فى الترحيب . ذلك لأن الرجل عندما توجه لخطبة العروس لولده تخير أسرة طيبة تتسم بالصلاح ومشهود لها بالحفاظ على شعائر الإسلام ولا يعيبها إلا الفقر الذى يظن بعض الناس أنه عيب . لكن العقلاء يعلمون أن الغنى غنى النفس ، واستمرت الأفراح بأنوارها وزغاريد أهل القرية إلى أن انبثق الفجر الصادق فتوجه الشيخ محمد ومعه الجميع إلى المسجد لأداء صلاة الفجر التى تشهدها الملائكة ، ويتأخر عنها الفجار والمنافقون . عاد الرجل من صلاته وكان من عادته أن يوقد النار فى الموقد «المنقد» يقدد عليها العيش ويضع القهوة ويلتف حوله العديد

ممن حضر معه تلك الصلاة . بعد ذلك دخل إلى حجرته فاستراح قليلا ثم نهض فى الضحى فتوضأ وركع ركعتى الضحى وتوجه إلى الحقل فأشرف على العمل ، واهتم بالعمال ، وباشر عمله بروح الجد والمثابرة ومضى اليوم حتى أدى صلاة العشاء . ثم آوى إلى بيته الذى خلا تلك الليلة من الزوار بقصد إفساح المجال للحاج أن يستريح من سهرة ليلة أمس ومن عناء اليوم وهو يتحرك بين زرعه وحدائقه الفيحاء ، وما دخل الرجل حتى اجتمع عليه أولاده الذين تكلموا مع أبيهم وقالوا : لم لم تزوج أخانا بنت فلان أو فلان وهم من الأغنياء المشهود لهم بالثراء الواسع وامتلاك الأراضى الكثيرة قال الرجل لأولاده من تزوج المرأة لدينها لم يزده الله إلا عزًا ، وصدق الله العظيم ﴿إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله﴾ [النور : ٣٢] . ولم تبحثون عن المال والمال عندكم كثير فقالوا : وأين هو ، وأين كثرته وأنت توزع منه ذات اليمين وذات الشمال؟ فقال لهم هذه الزكاة ، بسببها ينمو المال ويزيد ويطهر فتطهر النفس من الشح والبخل والجبن ، ولكنكم ذكرتمونى أيها الأولاد . . انظروا ، ومد يده وفتح خزينة حديدية فى جانب حجرة داخلية أخرج منها المائة بعد المائة من أوراق البنكنوت ثم قال لهم متأثرًا . لقد كان النسيان سيغلبنى . . أتعرفون فى أى شهر نحن؟ قالوا نحن فى شهر رجب قال : سبحان الله إنه شهر الله المحرم وأنا من عادتى أن أخرج زكاة المال فى أول هذا الشهر الكريم من كل عام حتى لا أقع فى الإثم ، وبدأ يحصى أمواله ، فقاطعه أحد أبنائه قائلا : يا أبت هذه أوراق بنكنوت ليس فيها زكاة ،

فقال الرجل لا يا بنى بل فيها زكاة، ذلك لأن الورق من البنكنوت عبارة عن مستند رسمى على البنك الذى أودع فيه ما يغطيه من رصيد الذهب، والحكومة ضامنة لقيمة هذه الأوراق، ولهذا تجب الزكاة فيها إذا بلغت نصابا على أساس الثمن المحدد للذهب أو الفضة، ولما كان غطاء هذه الأوراق الآن فى البنوك هو الذهب فتقوم على أساسه، ونصاب زكاة الذهب هو «عشرون مثقالا» وهى تساوى ١٢ جنيها ذهبا وسعر الجنيه الآن ١١٥ × ١٢ = ١٣٨٠ فإذا زاد المبلغ زادت القيمة لأن المال مال الله ويلاحظ الزيادة فى سعر الذهب وهكذا.

(٦)

ساد الحجرة سكون كامل، وكانت هناك نظرات متبادلة بين الأب وأبنائه وهو يحصى النقود وبيده ورقة يدون فيها ولكن السكون لم يدم.. إذ شق الحجرة صوت أحد الأولاد يقول: أيها الأب الحنون، إننا ندفع الضرائب للدولة وهى تكفى عن الزكاة، ونحن نشاهد صراف القرية يأتى إليك ليأخذ الأموال المقررة. أجاب الأب: لا يا ولدى.. الأموال المقررة شيء والزكاة شيء آخر، فالأموال المقررة مقصود بدفعها أن الدولة تتولى تطهير المصارف وتعبيد الطرق، وحماية الجسور حتى لا يكون هناك فيضانات تغرق الزراعة ولولا ذلك لما كان هناك طرق نمشى عليها، والأموال المقررة لا تغنى عن الزكاة.. أما الضرائب، فهى لبناء المدارس- وتوصيل الكهرباء والمياه والإنفاق على المستشفيات والسكك الحديدية والبرق والبريد والضرائب كذلك لا تغنى عن الزكاة لأنها تخضع للزيادة والنقصان حسب الدخل وتكوين الأسرة.

أما الزكاة، فهي من الله للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل، فريضة من الله محدودة ثابتة لا تزيد ولا تنقص من يوم أن فرضها الله في كتابه وبين مقدارها رسول الله ﷺ ، وقد قال الله لنا: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[الحشر: ٧]. فلولا سنة النبي العظيم ﷺ لم نعرف المقادير المحددة في المال والزروع والأنعام.

وهكذا يا أولادي علينا أن نكون حذرين لأننا لو لم نفعل ذلك لهلك المال، وغضب الله علينا، وما ربك بظلام للعبيد. ثم يستمع الجميع إلى صوت يأتي من بعيد.. بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥]. صدق الله العظيم.

هل ترضون لأبيكم أن يجمع المال لتتنعموا به أنتم ويكون لي أنا الكي والعذاب الأليم. هذا لن يكون، سأرضي الله بإخراج الزكاة، وسيبارك الله لي في الباقي، وها أنتم ترون كل عام يتبقى لنا الآلاف من الجنيهات، وانظروا إلى خليل صاحب المحل الذي لا يخرج له زكاة وهو يمتلكه من أكثر من عشر سنوات. ماله كل يوم ينقص ولم يزد ولم يكن مستريحا في يوم من الأيام كما هو حالنا والحمد لله.

يقول أحد أبناء الرجل متعجبًا: أفي العسل زكاة؟! ويرد الرجل: نعم في العسل زكاة: فيه العشر.. كل عشرة أرطال فيها رطل..

وكذلك عروض التجارة – مثل محلات «المانيفاتورة»، ومحلات الذهب ومحلات الأحذية، والخردوات، والمصانع الكبرى والصغرى، وآلات الإنتاج، والمبانى التى تتخذ للتجارة، ومحلات السيارات، وكل عروض التجارة حتى ولو فى المواشى. كل ذلك يقوم آخر العام ويحصى المال كله ويخرج عنه ربع العشر . . وهل تعلمون أن كل ما وجد فى باطن الأرض من المعادن كالبترول أو النحاس أو الحديد أو الرصاص أو الزنك أو الذهب أو الفحم. أو أى مال مدفون وله منفعة الآن ويمكن الاستفادة منه. فإن فيه الخمس. فدول البترول الآن مطالبة بأن تقدم الخمس بعد حصر التكاليف بحيث يوزع هذا القدر الذى حددته شريعة الله على الفقراء من المسلمين فى أى مكان أو أى دولة لأن المسلم وطنه هو كل بقعة فى الأرض يعيش عليها مسلم يقول: لا إله إلا الله. وإذا كان أى مسلم يموت جوعًا؛ فإن المسلمين الذين يجدون المال ويعلمون بهذا الذى مات جوعًا قبل موته ويعلمون حاجته للمال ليعيش. فإنهم بعدم تقديمهم إليه ما كان يحتاجه قد اشتركوا جميعًا فى قتله والله يقول: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١].

(٧)

نامت القرية ورفرف عليها طائر الكرى بجناحيه وأوى الكل إلى فراشه بعد أن أدى ما عليه، ولكن شوارع القرية شهدت على غير

العادة هذا الرجل يروح ويجيء يطرق باب هذه وباب تلك وباب هذا وباب ذاك. ويناول من يفتح كيسا ثم ينصرف والدعوات تلاحقه وأخيراً وصل إلى داره بعد أن أنهى مهمته. ثم أوى إلى فراشه، ومازالت الأصوات الطيبة ترن فى أذنه له بالدعوات وطول البقاء وموفور الصحة، وكثرة المال، إلا أنه أحس بالتعب، فتوضأ لأنه يعلم أن الوضوء سلاح المؤمن وركع ما شاء الله له لأن الصلاة راحة النفس، وهدوء الفكر.، ثم تمتم بدعوات واضطجع على جنبه الأيمن ونام. وفى الصباح شق القرية صوت الناعى ينعى هذا الرجل الذى فتح البيوت بالأمس ووسع على العديد من عيال الله، لكن!! لكل أجل كتاب ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١]. إذا جاء الأجل فلا يمكن أن يتأخر الإنسان مهما كانت منزلته، وأيا كانت مكانته، واجتمع أهل القرية وامتلأ المسجد بالمصلين عليه والمترحمين والباكين الذين لا يستطيعون أن يمنعوا عيونهم من البكاء وألسنتهم تقول: إن العين لتدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا وإنا بفراقك يا مطعم اليتامى، وكاسى الأرامل، ومفرج كروب البؤساء لمحزونون، وووري الرجل التراب ورجع الناس يتحدثون عن الرائحة الزكية التى شموها من قبره. والأضواء التى رآها البعض وأنكرها البعض وأوى الجميع إلى بيوتهم وإلى فراشهم؛ إلا أولاد الرجل الذين اجتمعوا، وقالوا: لا بد أن نضع حداً لما كان يفعله الأب، ثم مالوا على بعضهم يتهامسون واتفقوا فيما بينهم على أمر أبرموه وخطة أحكموها، وعمل تراضى

عليه الجميع إلا أصغرهم، فإنه أمسك عن الإدلاء برأيه خوفا من تسفيه كلامه كما يصفه البعض بأنه صغير لا يدرك المسائل ولا يعرف أبعادها لهذا آثر السكوت على الكلام وإن كان ذلك أضعف الإيمان.

(٨)

قبل فجر اليوم التالى شهدت القرية أبناء الرجل يمشون فى طرقاتها متلفتين متهامسين بأصوات خافتة. يريدون أن لا يسمع بهم أحد، إنهم يريدون الذهاب إلى الحديقة فيقطعون ثمرها ولا يوزعون أى شيء على أحد، إنهم يريدون منع الزكاة وأخذ تلك الأموال واستثمارها فى شراء أراضى أخرى ليوسعوا مزارعهم إنهم أضمروا ذلك منذ تلك اللحظة التى تم فيها دفن الأب الصالح الكريم، لقد ظهرت نيتهم السيئة التى انطوت عليها قلوبهم وعقدوا العزم عليها وأرادوا أن ينفذوها، ها هم اليوم وفى تلك اللحظة توجهوا إلى الحديقة التى عولوا عليها ازدياد الخير لهم ثم إلى الحقول الفيحاء ليجنوا الثمر الجيد. لكن ها لهم ما رأوا. فالأرض جرداء! والشجر ليس به ثمر!! ماذا جرى؟ إن أرضنا قد انصرفنا عنها أمس فقط وهى مثمرة خضراء.. لا.. هذه ليست أرضنا. إن الأمل يراودهم.. وعقلهم الباطن يهتف بهم لقد ضللتم الطريق، وعادوا إلى بيتهم ثم رجعوا. إن الطريق هو الطريق، وهذه علامات الطريق، هذا حقل «زيد» بأشجاره، وتلك هى حديقة «الرفاعى» بما عليها، فما بالنا؟ إن تلك الحديقة الجرداء هى حديقتنا. قال أوسطهم: يا قوم إنكم بيتم

النية لأكل حق الفقراء. فانتقم الله منكم لأنه سبحانه هو ولى أمرهم وحامى مصالحهم ومكرتم أنتم ومكر الله بكم وكان مكر الله أسبق من مكركم. استغفروا ربكم وتوبوا إليه. واندموا على ما فرط منكم. قالوا سبحان الله تنزه الله عن الشريك ونبرأ إليه من سوء نيتنا ونستغفر الله العظيم ونتوب إليه ونندم على سوء قصدنا إنا كنا طاغين. لقد ظننا أننا نستطيع أن نتحكم فى مقدرات الفقراء فإذا نحن أضعف. قال أوسطهم: لقد سول لكم الشيطان بأن الزكاة تسبب الفقر وانقدتم أنتم لهذا الفكر الملوث ونسيتم أن الله وعدكم الخير الكثير والزيادة فى النعيم وراحة البال وجلب البهجة لنفوسكم إذا أخرجتم الزكاة وصدق الله العظيم: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً﴾ [البقرة: ٢٦٨]. قال الأولاد: إن تبنا إلى الله وندمنا على ما كان منا من سوء نية هل تعود إلينا حديقتنا وتعود لأرضنا بهجتها وأزدهارها؟ قال الأخ الكريم: نعم. إن الله رءوف بعباده رحيم بهم. فإن علم منكم صدق النية وحسن القصد ومساعدة الفقراء والتعاون والإيثار فإن السماء تحرس لكم أموالكم وتبارك جهدكم وتسدد خطواتكم لأنه سبحانه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وهو سبحانه القائل: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢-٢٣]. وهو القائل: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود: ٦].

إن الأرض والسماء لا يضنان بخيراتهما على البشر ولكن نفوس

الناس هى البخيلة الشحيحة خوف الفقر يقول الحق سبحانه : ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا﴾[الإسراء : ١٠٠]. لقد ثاب الأولاد إلى رشدهم، وندموا على سوء طويتهم، وعقدوا العزم على أن يغسلوا قلوبهم من الشح والبخل. والماء الطاهر الذى يتم به غسل القلوب هو : التوبة، والاستغفار، والندم، والذى يزيده بياضا : الإخلاص لله، والحب للناس والتعاون معهم لقد عقدوا النية على أنهم لن يفكروا فى قطع ما كان أبوهم يفعله، ثم فتحوا أبواب بيوتهم لأنهم كانوا قد أغلقوها وكذلك الشبابيك وأضاءوا الأنوار وتكلموا بصوت عال.

(٩)

إن العديد من أهل القرية تساءل : منذ مات الحاج «محمد» ولم يطرق على بابنا طارق وظهر العديد من الأسر وهم الذين كان يذهب إليهم الرجل عليه الرحمة بنفسه يحمل الطعام أو يقدم المال وظهر للناس أن هذا الرجل الصالح بارك الله له فى ماله، ووسع له فى رزقه وأخلف عليه ما كان ينفق، ومع ذلك فكل قرش قدمه لفقير وكل لقمة قدمها لجائع وكل جلباب صنعه لمحتاج جزاؤه اليوم دعوات تتردد على ألسنة اليتامى والأرامل الذين عاشت فى ذهنهم صورته وعلى لسانهم ذكره والذكر للإنسان عمر ثان، وكما يقول القائل :

ليس من مات فاستراح بميت   إنما الميت ميت الأحياء
إنما الميت من يعيش كئيبًا   كاسفًا باله قليل الرجاء

ذهب الناس إلى البيت بعد أن تم فتحه وكان الخير فى أقدامهم

فعادت البهجة ودخل الناس ومعهم الأنس واجتمع الشمل وبدأت الأشجار تخضر ومضت أيام وظهر الثمر . ولاحت تباشير الخير ، وصدق الله العظيم الذى يقول : ﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ [الجن : ١٦] . وكل قرش تقدمه لمحتاج أو طعام لجائع أو كساء لعار يرد إليك صحة فى بدنك ونماء فى مالك وبركة فى عيالك وسعادة فى نفسك وصدق الله العظيم : ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة : ٢٤٥] . وصدق رسول الله ﷺ «إنما الأعمال بالنيات» وصدق من قال : «إنما ترزقون بنياتكم» ولقد صور القرآن الكريم لنا مثل تلك القصة الرائعة . وضرب لنا بها المثل ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة والله يقول الحق وهو يهدى إلى سواء السبيل ، وإليكم هذه الآيات من سورة القلم وهى من السور المكية نقرأها تذكيرًا للعاقل وتنبيهًا للغافل وعظة وعبرة لمن ألقى السمع وهو شهيد . بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣) أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ (٣٠) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١)

عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣) إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٣٤) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ (٤٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ [القلم : ١٧-٤١] .

هذه قصة من واقع الحياة جرت أحداثها فى قرية من قرى مصر الطيبة وعلى أرض الله الواسعة أقدمها لتكون عبرة بين يدى القارئ . وليعلم الناس أن التاريخ تعاد قصصه وتختلف مظاهره ولكن الغاية واحدة . والنتيجة فى النهاية تتفق فى مضمونها . وصدق الله العظيم : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : ٣٨] . نذكر بها الناس ونذكر أنفسنا . والإنسان العاقل هو الذى يتخذ العبرة من الأحداث ويتعظ بها وعليه أن يكون فى مجتمعه إيجابيًا يسهم فى كل عمل خير يعود على المجتمع بالرفاهية وعلى البشرية بالسعادة والخير والفلاح .

والله يقول الحق ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

الفصل الثانى

العمل الصالح وأثره

من تعاليم الإسلام

١ - البر بالوالدين. وإكرامهما. والإحسان إليهما فى حياتهما والدعاء لهما بعد مماتهما مما حثنا عليه الدين وأمرنا به رب العالمين ودستور الإسلام ينص على ذلك قال الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤]

٢ - حرم الإسلام الزنا ونهى عن ارتكاب تلك الجريمة الشنعاء التى تهدر الشرف وتكون سببًا فى اختلاط الأنساب وتضييع الحقوق على أصحابها، وسببًا فى انتشار العديد من الأمراض التناسلية والعضوية. قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]

واعتبر الزانى المصر على الزنا هو والمشرك سواء قال تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣].

٣ - أمر الإسلام العامل أن يتقن صنعته وأن يجود عمله ولا يتهرب من أداء الواجب عليه كما أمر صاحب العمل أن يعطى الأجير

أجره المتفق عليه ولا ينقص منه شيئًا مهما كان صغيراً ففى الحديث عن رسول الله ﷺ : «أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه».

هذه بعض الجوانب التى سنلقى الضوء عليها لنتعرف على أصناف من البشر التزموا بهذا الخلق . وتأدبوا بهذا الأدب ماذا كانت حياتهم؟ وكيف كانوا يتغلبون على المشاكل التى تصادفهم؟ وكيف أثروا فى المجتمع بسلوكهم الطيب؟ هذا ومما لا شك فيه أن المجتمع يسعد بالأفراد الذين يتحلون بالخلق الطيب لأنهم لبنات صالحة فى جسم الأمة وكيانها ، أما الذين يتركون الأخلاق وراء ظهورهم ويقبلون على الدنيا يعبون منها ويتكالبون عليها ويسعون للحصول على أى شيء ولا يبالون بالوسيلة ، أخسيسة أم شريفة فهؤلاء هم أساس تصدع المجتمع وأسباب انهياره وتأخره .

والأمة الإسلامية هى الرائدة فى التمسك بالأخلاق الكريمة ، والحرص على إيجاد المثل الطيبة وغرس ذلك فى نفوس النشء ليشبوا على مكارم الأخلاق ، ويحملوا راية الحق والعدل خفاقة على كل ربوع الدنيا .

لقد ساد المسلمون العالم وحكموه واستثمروا مقدراته فوجهوها إلى خير الإنسانية وصالح البشرية . يوم أن جعلوا الأخلاق الفاضلة شيمتهم والعمل الصالح دأبهم ، والتزموا بمنهج الإسلام الذى يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى .

ونحن اليوم فى يدنا مفتاح الحضارة المادى . ومعنا منهج هو أفضل المناهج على الإطلاق فلو أننا احتكمنا إلى منهجنا ، والتزمنا بهديه ،

وسرنا على مبادئه لسيطرنا على العالم الذى يتخبط اليوم ليبحث عن مخلص يخلصه من سيطرة المادة التى تحكمت فيه ، والآلة التى أصبحت سيدة الإنسان .

إن المادة لم تخلق إلا لتكون فى خدمة الإنسان ومسخرة لإرادته ومن أسباب تقدمه ورقيه وسعادته إذا هو سخرها باسم الله ووفق منهاجه وكذلك تكون سببًا فى تعاسته وشقائه يوم يستخدمها بعقله وعاطفته مبتعدًا عن قانون الله ومنهاجه .

ولقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك حيث يقول الحق سبحانه : ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد : ٢٥] .

إن الإنسانية اليوم وهى تتخبط فى دياجير الظلام الذى ران على حياتها بسبب الهوى والميل الجائر - نقدم لها تلك النماذج البشرية التى ارتقت فوق المادة وسخرتها لها من خلال تحكمها فى عواطفها .

والسير على هدى السماء ، وخلق الأنبياء الذين وجهنا الحق إلى التمسك بهديهم والسير على مبادئهم فقال : ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام : ٩٠] . لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثًا يفترى .

(١)

قرية صغيرة تعيش وسط المزارع النخيل الذى يتطاول إلى عنان السماء ، والأشجار الأخرى المختلفة الأحجام المتميزة الثمار ، ومنها ما لا ثمر له . يتخذه أهل القرية فى مصالحهم المنزلية ، بأغصانه يعرشون البيوت ومن جذوعه تصنع الآرائك والأسرة ، يحيط بالقرية

نهر من ناحية الغرب ويحتضنها جبل من ناحية الشرق . يفصل الجبل عن القرية مكان شاسع معبد تنبت فيه الحشائش ولا يصلح للزراعة لملوحة أرضه ومن بحرى القرية وقبليها أرض جيدة التربة يزرعها الناس بالقمح والأرز والقطن والعديد من أصناف المزروعات التى يحتاج إليها أهل القرية لطعامهم ويصدرون ما يزيد عن حاجتهم إلى القرى المجاورة .

فى وسط القرية مسجد ترتفع مئذنته التى يعلوها المؤذن فيتعرف الناس على الأوقات فيسارعون لتأدية ما فرض عليهم من صلوات ، وبعض أهل القرية قد اتخذ فوق أرضه مصلى صغيرًا فرشه (بقش الأرز) وهو على شاطئ النهر فإذا سمع أحدهم صوت المؤذن وهو فى حقله يعمل أسرع لتأدية فرض الله لأنه يشعر أنه بالدين يعيش ومن أجله يسعى يبتغى فضلا من ربه الذى خلقه وإليه يعود . وسوف يقف أمامه فى يوم يحاسبه فيه الإله على ما قدم ، لذلك فأهل القرية يحافظون على حقوق ربهم ويكثرون التردد على المسجد الذى يجلس فيه عالم الدين يذكرهم بالله وخيراته ويعظهم فى الدين ويرد على استفساراتهم ويشرح لهم آيات الله التى تتلى عليهم تسير حياتهم فى هدوء فلا مشاكل ولا اعتداء ، لأن كل واحد يدفع ما عليه قبل أن يطالب بالذى له فى سماحة خلق ورضا نفس وسوف نعيش مع ثلاثة أشخاص كان لهم دور بارز فى حياة القرية أسهموا فى فعل كل خير وشاركوا فى كل مشروع يخدم القرية .

أول هؤلاء :

محمد : أحد أهل القرية وهو أب لثلاثة أولاد وزوجه تعيش معه

في هدوء واستقرار، والد هذا الشخص ووالدته يعيشان مع أولاده وزوجته. الجميع يعيش في استقرار وسعادة يتبادلون الحب والوفاء ولا ينغص حياتهم أي شيء.

جلس محمد بجوار أبيه وأمه وزوجته وأولاده، وأمامهم الطعام يتناولون غداءهم فلا يمد يده إلا بعد يد الأب والأم وكان يقول وهو يقطع الطعام: سمعت شيخنا بالمسجد يقول: إن أحد الصالحين كان لا يجلس مع أبيه وأمه على طعام بل يقف عليهما يخدمهما حتى إذا شبعا جلس وهو يأكل ما تبقى منهما. ولما سئل عن ذلك قال: أخشى أن أجلس معهما فتسبق يدى إلى طعام فآكله وأحدهما يشتهيه فيغضب الله على».

لكن الأم دفعت يدها بحنان ووضعتها على كتف ولدها وهى تقول: «ربنا يحرسك يا ولدى ويبارك فيك، ويقر عينيك بأولادك» بينما زوجة الرجل «محمد» تبتسم ابتسامة الرضا وهى تقول لأم زوجها: وأنا. ليس لى دعوة من دعواتك المباركة؟ فترد الأم: ربنا يحفظ عليك دينك وصحتك ويمتعك بأولادك ويبارك فى زوجك ويزيد سعادتك.

انتهى الجميع من تناول الطعام، واتجه الابن إلى حظيرة الأغنام فساقها أمامه واتجه إلى الكلأ المباح فى الأرض المالحة حيث ترك أغنامه ترعى وجلس هو تحت شجرة. بينما أخذت الأغنام فى قضم الخضرة وأكل كل ما تستسيغه. ومضى وقت.. هبت نسمات طيبة بعد لفحة حر شديد، فأنعشت جسد هذا الرجل «محمد» فإذا به يتمدد على الأرض تحت الشجرة وينام.

(٢)

استيقظ محمد من نومه وتلفت حوله فإذا بالظلام قد غطى المنطقة المحيطة به، وتطلع عله يجد بصيص نور ينبثق من القرية فلم ير أى شىء مما يدل على أن الليل قد انتصف أو كاد فأسرع يهش على غنمه ويصفر لها. فأسرعت على صوته وساقها فى أمان واتجه مسرعًا إلى بيته فوجد الكل يغط فى نوم عميق. إلا زوجته التى كانت تتطلع من شباك. فأسرعت تفتح الباب فى هدوء حتى لا يحدث أى صوت لأن الأب والأم نائمان وقد يزعجهما ذلك.

(٣)

استيقظ أولاد محمد وأسرعوا إليه فوجدوه يحلب الأغنام وتكلم أحدهم وقال: يا أبى أنا أشعر بالجوع هات لى هنا لبنا لأتعشى وقال الثانى: أنا أشد جوعًا وقال الثالث: أنا أحق منهم لكن الرجل توجه بالسؤال لزوجته هل تعشى أبى وأمى؟ فقالت الزوجة. لا. من أين ونحن كنا فى انتظارك لنأخذ من لبن الأغنام. لقد ناما على جوع. فإذا بالرجل يحمل وعاء على يده اليمنى وآخر على شماله ممتلئين باللبن. ثم وقف على باب الحجرة التى ينام فيها أبواه وهو يحمل الوعاءين على يديه. بينما أولاده تحت قدميه يبكون من شدة الجوع. ولكن «محمدًا» يقول: والله لا أسقى أحدًا حتى نفسى إلى أن يستيقظ أبى وأمى فيشربا ويشبعا أولا؛ لأن الله أمرنى بالإحسان إليهما. وظل محمد واقفًا إلى أن استيقظ الأبوان فشربا وشبعا ودعوا له بالخير. ثم توجه بعد ذلك إلى أولاده وزوجته. فسقاهم ثم شرب هو آخرهم. ثم رفع يديه إلى السماء وقال: اللهم لك الحمد أعنتنى

فأكرمت أبوى وأرضيت أولادى وعطفت على زوجتى وشبعت من فضلك. لك الحمد ربنا ولك الشكر.

(٤)

سمع محمد أذان الفجر فأسرع إلى المسجد يصلى تلك الفريضة التى تشهدها ملائكة الرحمن: ﴿ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٨]. وهو يقترب من المسجد التقى بصديقه «محمود» وهو الآخر من أبناء القرية الأثرياء ودخلا المسجد معا وأديا الصلاة وتصافحا بعدها. وخرجا معا إلى أن تفرقا عند مفترق الطريق ويسير محمود حتى يقترب من بيت صغير، ويقف يتطلع إلى شباك ينبثق منه نور ونسمعه وهو يناجى نفسه ويقول: يا ابنة العم أما آن لك أن تقبلينى زوجًا؟ إنى أحبك. ونراه وقد وقف قليلا بعد هذا الكلام المسموع يتمتم بكلام غير واضح. ثم ينصرف إلى بيته ويتجه إلى حجرة يجلس فيها ويفتح خزينة ماله. ونراه بعد تلك الأموال وصوته يعلو: الحمد الله أموالى كثيرة قد زكيتها وأخرجت حق الله فيها ولذلك فإن ربنا مبارك لى وأرضى جيدة وأنا صحيح الجسم لماذا ترفض بنت عمى يدى التى تمتد إليها راغبة فى الزواج على شريعة الله ورسوله، ثم يتنفس الصعداء يتنهد ويقول: «هية أيام معلش يازمن الحلو ما يكملشى!!».

يأتى بعض العمال الذين هم عند «محمود» يقدمون إليه موقد النار «منقد» وقد وضعوا عليه «كنكة» القهوة وبين أيديهم الخبز والجبن وعسل النحل وجلس الجميع ومعهم «محمود» يتناولون طعام الإفطار على طريقة أهل القرية. ثم خرج الجميع إلى الحقل يعملون

بهمة ونشاط وعندما اشتدت الحرارة ترك الجميع العمل وجلسوا تحت «شجرة التوت» يتناولون طعامهم فإذا فرغوا منه تناولوا حبات التوت فحلوا بها فمهم . وصعد بعضهم على شجرة «جميز» فأحضر منها للجميع لأن روح المحبة تسودهم وتسيطر عليهم . فلما هدأت الحرارة وانكسرت حدتها وقف الجميع فى المصلى وأدوا صلاة العصر ثم استأنفوا عملهم إلى أن غربت الشمس فتوجهوا إلى القرية التى دخلها «محمود» وحده وقد اتجه إلى نفس البيت الذى وقف عنده فى الفجر يتطلع قليلا ثم انصرف إلى المسجد حيث جلس فى حلقة الدرس ينصت وبعد ذلك أدى صلاة العشاء، وقد التقى عند خروجه بصديقه «محمد» الذى يتبادل معه التحية وبعدها قال له : «يامحمود» أما آن لك أن تتزوج؟ فقال : أنت تعلم أنى أحب ابنة عمى ولا أريد أن أتزوج غيرها إلا إذا هى تزوجت لأن أملا فى قلبى أن أحظى بها لى خاصة وقد سمعنا من شيخنا أنه : «لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون» والأمل حلو نعيش به لا يأس مع الحياة ولا حياة مع اليأس .

(٥)

استيقظ أهل القرية على صراخ وعويل فى وسط الليل يشق سكونه وأصوات تتعالى «حريق . حريق» نار . املأى الجرة يا امرأة هات الطشت يا إبراهيم . واتجه الجميع إلى البيت الذى تطل منه النار بألسنتها - وهنا نذكر شهامة أهل الريف فى مثل هذه المواقف - فأخمدت النار لكنها كانت قد أتت على محصول القمح والأرز

المخزون فوق سقف ابنة عم محمود وانصرف الجميع بعد أن واسوها بكلمات وصبروها - والله المخلف والمعوض - وهول الموقف الخطير قد ألجم لسانها. وكانت زائغة البصر لا تدرى ما تقول. ومضت أيام رتيبة لكنها ثقيلة الخطى على قلب تلك الفتاة الوحيدة فى إدارة شئون بيتها، والمسئولة عن إخوتها الصغار بعد أن مات العائل وفنى الأخ ولم يبق لها إلا إخوتها الصغار وأرضها التى تديرها.

ومع مرور الأيام كانت تشعر بحاجتها للمال تريد أن تشترى من السوق ما يقيم أودها وأود الأولاد - وما تدفعه أجرة للعمال الذين يعملون فى أرضها، وكانت تفكر: هل تبيع أى قطعة من الأرض؟ لا: تلك فكرة مستبعدة. هل تستدين من البنك؟ إن ما يدفع «بالفائظ» وهذا ربًا. والربا حرام. هل ترهن الأرض؟ إن الخواجة الذى سترهن له الأرض يأخذها ليزرعها ويجنى محصولها ويستمر كذلك حتى يأخذ دينه، ولا أستطيع السداد فيعلن إفلاسى واستيلاءه على الأرض. فهذه طريقة استغلالية جشعة. ماذا أصنع؟

عاشت فى دوامة قاسية مرت عليها ليال لم تذق طعم النوم وأصبحت بادية الاضطراب، أأتجه إلى ابن عمى وقد رفضت يده التى امتدت لى وقت اليسر فهل من اللائق أن أتوجه إليه فى وقت الشدة؟ وماذا سيقول لى؟

(٦)

عاشت تلك الفتاة فترة كلها صراع نفسى وقلق فكرى واضطراب جسمانى وأخيرا هتف من أعماقها هاتف: يا أختاه !! لم لا تذهبين

إلى ابن عـمك وهو أقـرب الناس إليك «وعـمـر الظافـر مـا يطلع من اللحم، والدم عـمره ما يبقى ميه» وإذا لم يقف معى فى تلك المحنة ففى أى وقت يقف؟ لقد أكلنا العيش والملح وشربنا معا حلو الحياة ومرها، وذقنا النعيم يوم أن كان يجمعنا سقف واحد، ونلتقى على «طبلية» واحدة، والجد بطلعته المهيبة يتصدر المائدة ويتوسطنا وفى احترام متبادل نجلس نأكل ثم نتصرف : فهل يا ترى هو نسى كل هذا؟ لا. إن العيش والملح لا ينساهما إلا ابن الحرام. وأنا معتقدة أن ابن عـمى شـهم وشـجـاع وابن حـلال. هيـا توجـهى إليـه. فـالعـمـال يطـالبـون بأجـرهـم. وإخـوتى قـد تمزقت ثيابهم وبدأت أجسـادهم تتعرى وهم فى حاجة إلى ملابس وأنا فى حاجة ماسة إلى طعام، كل ما لدى نفد.

عاشت تلك الفترة فى دوامة الأحداث واشتد بها الصراع لكنها فى النهاية لم تجد مفراً من التوجه إلى ابن عمها.

(٧)

لقد كسرت حاجز الخوف الذى استبد بها وأحاطها بسياج رهيب وتلفعت بمئزرها وفتحت باب بيتها واتجهت إلى بيت ابن عـمهـا وتصادف أن كان يطل من الشباك - فلمحها متجهة نحو بيته فخفق قلبه وقال : ابنة عـمى تأتى إلى وهى التى تأبت على ولم تقبل يدى لتكون زوجـة لى. تأتى إلى بيتى وهى تعلم أننى الآن وحـدى فى البيت. لابد أن هناك أمراً خطيراً اضطرها لتأتى إلى.. وبشهامة أهل الريف وأصالة الأخلاق الطيبة والتمسك بالمبادئ العالية التى يتحلى

بهـا هـؤلاء الناس الذين عـاشـوا في جـو الأخـوة والمحبـة والتـجـمع والصفـاء الـنفسي . أسـرع على سلـم بيته نازلا وفتح البـاب فـوجدها صـاعدة على درج السلـم فقـابلها هاشـًا باشـًا مـحييًا مـادًا يده بالسـلام عليها . وما إن دخلت وأغلق الباب وجلست على أقرب كرسي حتى انفجرت في البكاء .

(٨)

أخذ «محمود» يهدئ من روع ابنة عمه . وكان يمد يده على ظهرها «مطبطًا» حتى إذا هدأ روعها وكفت عن البكاء . كان محمود قد تحركت فيه الغريزة المكبوتة وراودته فكرة ظل يبعدها عن نفسه إلا أن الغريزة ألحت عليه وقد علا صراخها في أعماقه .

أليست هذه هي الفتاة التي ملكت عليك قلبك؟

أليست هذه الفتاة هي التي استولت على فكرك؟ ولطالما وقفت الليالي الطوال على شباك بيتها وخيالك يتابع حركاتها وسكناتها . . ها هي الآن بين يديك . ولقد تحركت الغريزة بعد أن لمس جسدها الذي كثيراً ما احتضنته عيناه . واعتصره فكره . وإذا كانت اللحظات السعيدة لا يجود بها الزمن إلا مرة واحدة في العمر . فهذه أسعد لحظة فاغتنمها قبل فوات الأوان .

عاش «محمود» في دوامة الأحداث وشريط الحب يمر أمام عينيه . لقد تذكر أيام طفولته يوم أن كان يلعب معها . وهذه الأزقة لطالما شهدت طفولتهما البريئة وهما هنا يجريان وعلى شواطئ النهر والترع يلعبان . كم لعبا وكم استحما في تلك المياه .

هذه النسمة السارية لطالما تنسماها معا . هذه النجمة العالية إنه يتذكر الآن أنه قال لها . «لو طلبت منى هذه النجمة سوف أحضرها لك» .

وهكذا تذكر تلك الأحداث التى أخذت تمر أمام عينيه تذكره بالماضى وتطورات الأحداث إلى أن تذكر لهيب النار وهى تندلع من بيت ابنة عمه فأفاق من سبحات فكره . ومسح جبينه من العرق المتصبب . ثم قال : خيراً جئت يا ابنة العم ماذا تريدين؟

وصل صوته إليها وكأنه صوت آت من أعماق الماضى . فلقد كانت هى الأخرى فى سبحات فكر واستعراض لتلك الأحداث التى مرت بهما فى الأيام الخوالى . لكنها كانت تسأل نفسها؟ هل يا ترى سيستجيب لى ابن عمى ويحقق أملى فيه؟ أم سيكون كالزمن الذى أعيش فيه؟

(٩)

الفقر قرين الكفر . وما ذهب الفقر إلى بلد إلا وقال له الكفر : خذنى معك . والبطون الجائعة تطلب لقمة العيش بأى وسيلة لكن النفوس تختلف . فقديمًا قالت امرأة عربية : «تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها» .

لقد أفاقت فتاتنا على صوت ابن عمها . يسألها؟ خيراً تطلبين فقالت له : أنت تعرف ما نزل بى وما توالى علىّ من نكبات . وأنا الآن فى حاجة إلى مال أسدد الديون التى تراكمت وأشترى الحاجات الضرورية وعندما يظهر محصول القطن سوف أدفع لك ما أخذت .

لأنك تعلم أن التعامل مع البنك بالربا وهو حرام . والرهن عند الخواجة وهذا استغلال واستيلاء على الأرض بأسهل الطرق وأيسرها لذلك لم أجد إلا أنت بعد الله ألجأ إليه . فكن عونى فى شدتى ومعينى فى محنتى ولا تتخل عنى .

سمع محمود هذه الكلمات فغطت على عقله وعلى صوت عاطفته . وتحركت غرائزه تزيد لهيب العاطفة تأججا وتكلم محمود بصوت العاطفة كم تريدين؟ قالت : ألف جنيه .

قال : لك ما تريدين بشرط . لقد سمعت تلك الكلمة فظنته يريد كتابة «كمبيالة» أو أى كتابة أخرى حفاظا لحقه وهذا من تعاليم الإسلام . وليس فى ذلك أى شيء ، لذلك فقد أخرجت «الكمبيالة» من صدرها ومدت يدها إليه بها . فأمسك بيدها يقبلها ويمرغ جبينه عليها . ولقد ألجمتها المفاجأة التى لم تكن تتوقعها . فالمفروض أن ابن العم هو الحماية لها . والذائد عن شرفها لأن شرفها من شرفه . وهى التى عاشت عمرها فى صيانة هذا الشرف الذى تفخر به وتعتز بين مثيلاتها بأنها الفتاة المصونة الحصينة التى التزمت بتوجيه الأب قبل أن يموت . وصانت عفافها فلم يدنس جسدها أى شيء حتى يداها لم تلمس بهما يد رجل آخر ولم ير عليها سوء أبدًا . فابن العم يقبل يدى بهذه الصورة وقد غابت عن الوجود : أيقبلها عطفًا عليها ليمسح عنها تعب الأيام ومرارتها وقسوتها؟ أم يقبلها بنية خبيثة لم يفصح عنها ، إنها لا تقرأ الغيب ولا تعرف ما فى الصدور . سحبت يدها برفق فإذا «بالكمبيالة» قد ابتلت بدموع محمود وأصبحت تالفة لا تصلح فقالت له :

سأذهب وأحضر لك غيرها من عند البقال، فقال لها لا أريد «كمبيالة» فقالت: وماذا تريد إذن؟ قال: أريدك أنت يا فتاتي الغالية. يا حلم الليالي. بل يا نور العين ويا مهجة القلب يا مالكة أمري.

وأخذ يسمعها من الكلمات ما جعلها تغيب عن الوجود، وكان قد أسرع فاحتواها بين يديه وسقطا معًا على الأرض فتمدد بجانبها ويده تعبث بجسمها، ومرت لحظات أفاقت تلك الفتاة وتداركت الموقف بسرعة. وقالت له:

يا محمود: اتق الله فى، ولا تفض الخاتم إلا بحقه وبما يرضى الله، قال لها: بصوت العاطفة المتأججة إننى وحدى فى البيت وليس معنا أحد. ولن يرانا أحد. ثم نهض يريدها فقالت له:

انظر إلى أعلى. ألا ترى أحدا؟ قال لا أرى إلا الكواكب. فقالت له: وأين مكوكبها؟ إن الله يرانا واعلم أنه مهما يكن من أمر مستور فالله يعمله، وقديمًا قال الشاعر:

ومهما تكن عنده امرئ من خليقة   وإن خالها تخفى على الناس تعلم

فاتق الله فىَّ وصن شرفى، خف من الله الذى سوف يحاسبك يومًا على فعل ما نهاك عنه.

وصلت تلك الكلمات إلى أذن محمود وقد هدأت العاطفة وانطفأت واحتل العقل مكانه وبدأ نوع من التأنيب التابع من الضمير الذى هو فى أعماق الإنسان، وجلس بين يديها كالطفل يبكى على تصرفه معها بهذا الأسلوب ويقول لها: الحمد الله لم يحدث شىء نندم عليه وما جرى فالله يسامحنا ويغفر لنا وهو الغفور الرحيم.

لكن لى رجاء يا ابنة العم . قالت بكل اطمئنان سل واطلب قال : سامحيني . فلقد أراد الشيطان أن يغويني لكن الله لطيف وسلم قالت : سامحتك يا ابن عمى فأنت الأمل والرجاء والمعين والنصير بعد الله تعالى .

ثم أسرع محمود إلى داخل الحجرة وأحضر ألفًا وخمسمائة جنيه وقال : هاك ما طلبت وأكثر ، والله معك يرعاك ويحرسك ، ندم محمود على ما بدر منه ، وبعد انصراف ابنة عمه توضأ وتوجه إلى المسجد لأداء الصلاة وهو يشعر بتأنيب الضمير ووخزه . وفى الصلاة قرأ الإمام بعد الفاتحة : ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤) بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (٥) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (٦) فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩) يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (١٠) كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢) يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣) بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ (١٥)﴾[القيامة] .

وما إن فرغ الإمام من الصلاة حتى انزوى محمود فى ركن المسجد يبكى أسفًا على ما كان منه ويرفع يديه إلى السماء يسأل الله أن يغفر له ويعاهد الله أن لا يعود لمثل ما كان أبدًا . والحمد لله أنها لم تصل إلى الجريمة الكبرى وإلا كان مات كمدا لعصيانه لأمر ربه لأنه كثيراً ما سمع الشيخ فى المسجد يردد حديث الرسول ﷺ : «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن» .

(١٠)

بينما محمود مستغرق فى الدعاء أحس أن يدًا حانية تمتد إليه تهزه من كتفه. فالتفت فإذا بصديقه محمد ومعه صديقه الوفى أحمد وقف وسلم عليهما وخرج الكل متجها إلى بيته إلا أحمد الذى اتجه إلى حقل له مزروع «قطنًا» وقد علت أشجاره قليلا فجلس على رأس الأرض وما هى إلا لحظات حتى جاء العديد من الأفراد يحملون على كتفهم الفؤوس فسلم الكل على أحمد الذى حثهم على عزق الأرض جيدًا وإبعاد الحشائش عن شجر القطن لأنه الثروة التى ننتظرها نكسو الأولاد ويتزوج الأعزب وتفرح القرية أيام الجنى لمحصول القطن وتسهر فى أفراح متتالية. ثم اتجه إلى القرية وهو يقول لهم سأنتظركم بعد صلاة العشاء ليأخذ كل واحد منكم أجره. وسوف أجلس فى «المنظرة البحرية» وارتفعت الأصوات تدعو لأحمد هذا بزيادة فى العمل ووفرة فى المحصول. «فأنت رجل طيب عمرك ما كلتش أى حاجة على أحد».

مضى اليوم وانصرف العمال، وأديت الصلاة- صلاة العشاء- واتجه الجميع إلى بيت «أحمد» فوجدوه قد أعد لهم المشروبات، ونادى على كل واحد باسمه وأجلسهم- كل هذا وألسنة العمال تدعو له وتثنى عليه- وأخذ يحكى لهم حكاية كأنه يريد أن يزيل من أنفسهم الحرج، ولما انتهى تشجع البعض وقص هو الآخر قصة إلى أن انتهوا من تناول المشروبات رويدا. ثم بدأ «أحمد» يعطى كل واحد أجرته:

هذا له ثلاثة أيام، وهذا له أربعة وهذا له أكثر، وهكذا، وما كاد الجميع يهم بالانصراف حتى سأل أحمد: أين خليل؟ لم لم يحضر معكم لأخذ أجره؟

قال أحد العمال: لقد رأيته يركب سيارة نقل كبيرة متجهة إلى البندر وسمعته وهو يقول: أنا هشتغل فى البندر خلاص. قال أحمد: على كل حال هو له عندى عشرة أيام فى ٧٥ قرش= ٧٥٠ قرش «سبعة جنيهات ونصف». سوف أركنهم لوحدهم علشان ما يختلطوش بمالى لأنى ليس لى الحق فيهم. انصرف الجميع ومضت أيام لم يظهر فيها «خليل» على مسرح الأحداث ولم يحضر لاستلام أجره- وإذا بأحمد يلتقى مع صديقيه محمد ومحمود- فيقص عليهما قصة العامل خليل ويقول! عجبا إنه فقير جدًا ولا أدرى لم ترك هذا المبلغ ولم يحضر لأخذه؟ ثم دخلوا المسجد وصلوا واستمعوا الدرس الدينى حول تفسير قول الله سبحانه: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ [النحل: ٩١]. وبين الشيخ أن الوفاء خلق حميد وصفة جميلة من تحلى به كان محبوبًا عند الله وعند الناس. والفرد المسلم لا ينقض عهده أبدًا خاصة إذا شعر الإنسان برقابة الله عليه وهو سبحانه لا تخفى عليه خافية ولا يغيب عن علمه شيء فى الأرض ولا فى السماء. فانصرف الجميع وقد أضمر «أحمد» فى نفسه أنه سيقوم بشراء بعض الأغنام بمال «خليل» وينميها له حتى إذا عاد وجد أن مبلغه قد ربح واستثمر أحسن استثمار.

توجه «أحمد» فى الصباح إلى سوق المواشى بالمدينة حيث اشترى ستة رؤوس من الأغنام بمبلغ «خليل» وجعل لها علامات مميزة وأطلقها مع غنمه ترعى وتروح وتجىء ويحلب لبنها ويباع لحساب «خليل» ومضت سنة كاملة كانت النعاج قد توالدت وبعد العام الثانى زاد نتاجها علاوة على ثمن الألبان الذى يزيد فى الرصيد يومًا بعد يوم، وما هى إلا سنوات ثلاث حتى كانت نعاج خليل أكثر من مائة رأس، وشكلت قطيعًا مميزًا بعلامات معروفة.

ذات يوم بينما يجلس «أحمد» تحت شجرة على رأس أرضه إذا بشخص يقف أمامه مضطرب الأعصاب زائغ البصر ممزق الملابس. حافى القدمين وهو يقول: يا سيدى: ألا تذكرنى؟ أنا «خليل» كنت أعمل فى أرضك مع العمال منذ أربع سنوات تقريبًا وقد أغوانى بعض إخوان السوء أن أرحل معهم إلى «البندر» وهناك عمل كثير بأجر كبير وانقدت لهم وتركت العمل عندك وكان لى أجر عشرة أيام. وأنا الآن جائع عار فى شدة الحاجة إلى أى شىء أستعين به إلى أن أرتبط بعمل فهل تذكرنى ياسيدى وتعطينى الذى لى أو أقل منه؟ صوب «أحمد» نظره فى خليل الذى اصفر لونه واسودت أسنانه. وتهدل جسده وهو يقف غير متمالك. وقال له: «مالك؟ إنت مش كنت بتشتغل؟» قال: ياسيدى: إننى أعمل بالنهار وأتردد على السينما بالليل. وأغوانى البعض فأدمنت الحشيش ولعب القمار. فانتفض «أحمد» وقال: أما تعلم يا خليل أن الحشيش حرام، وأن من مات مصرًا على تناوله مات مصرًا على كبيرة، وأن القمار كذلك؟

وإذا كان كذلك فهو قد خسر الدنيا والآخرة . وذلك هو الخسران المبين . قال خليل : ياسيدى : أنا لم أعلم بهذا إلا بعد الإدمان . وقد أقلعت عنه وندمت على ما فعلت ، والحمد لله ربى هدانى قال «أحمد» : اجلس يا خليل ، أصحيح أنك تركت هذا النوع من المخدرات؟ قال : نعم قال : اعلم أنك إن أطعت ربك أحبك . وإذا أحبك الله أحبك الناس . والله يسهل لك كل أمر ويجعلك تتغلب على كل صعب لأن المؤمن يعيش فى سعادة الرضا من الله سبحانه . فالزم نهج الصالحين وسر على طريق الناس الطيبين .

وما إن انتهى «أحمد» من حديثه إلا قال خليل : ياسيدى هل ستعطينى أى شىء من الأجر الذى كان لى عندك؟ قال : نعم . فالله سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ [النساء : ٥٨]

انظر يا خليل إلى هذا القطيع من الغنم المميز بعلامة فى أذنه : إنه لك . فنظر خليل : فإذا بقطيع من الغنم يزيد على المائة . فأعاد خليل نظره إلى «أحمد» وقال : لا تستهزئ بى ياسيدى لأنى فقير . إننى أطالبك بسبعة جنيهات ونصف . فنظر إليه «أحمد» وقال : حاش لله أن أستهزئ بك أو بغيرك . إن الإسلام ينهانا عن ذلك حيث يقول ربنا جل جلاله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ﴾ [الحجرات : ١١]

صدقنى يا خليل إن هذا القطيع لك ومن حقك أن تسوقه أمامك ولقد استثمرت لك أجرك فصار إلى ما ترى وكنت فى انتظار وصولك لأعطيه لك فأبرئ ذمتى منه : تردد خليل قليلا . ثم أخذ فى يده عصا وتوجه إلى القطيع من الأغنام فساقه أمامه وهو يشكر الله ويشكره . بينما أحمد أخذ يلوح بيده ويقول : مع السلامة - يا خليل حافظ على هذه النعمة وهذا المال وأد زكاته . ليزداد وينمو ويكثر عدده ويبارك لك فيه ربك .

ساق خليل الأغنام ولم يكن يتصور أبدًا أن ما يقوله «أحمد» صحيح واتجه إلى مكان آخر ثم كان يتردد على «أحمد» يزوره ويستشيره ، وكثيراً ما تجمع بينهما الصلاة فى المسجد يلتقيان يجلس أحدهما بجوار الآخر فى حب وتآلف وتعاون . . ألا ما أسعد الإنسانية إذا هى التقت على هدى السماء وعاشت على الأرض تتطلع إلى السماء بجميل السعى النظيف والقلب الطاهر ، وتخلَّق الأفراد بالأمانة والصدق والمروءة والوفاء .

(١٢)

يوم الجمعة فى القرية يوم طيب الصباح مبارك اللحظات ، يأنس فيه الجميع باللقاء فى صلاة الجمعة - هذه الصلاة الجامعة التى تبدأ بخطبة توجيهية من إمام المسجد الذى أحبه الجميع وائتمنوه على أسرارهم . واستدعوه لحل مشاكلهم ، واعتبروه المسئول عن ودائعهم ، وهو الآخر : يبادلهم نفس الشعور . وإن كان غريبًا عن القرية إلا أنه أصبح وكأنه منها نتيجة اختلاطه بأهلها حيث توثقت أواصر الصداقة بينه وبينهم .

ينهض الناس في الصباح بعد صلاة الفجر : فيستعدون للاستحمام ولبس أنظف الثياب بعد أن يكونوا قد قصوا شعورهم وأظافرهم فيتناولون طعام الإفطار الذى يصنع من الفطائر الطيبة ومعها أطباق القشدة واللبن والعسل بأنواعه . ثم يحتسون الشاى . ذلك لأن الطلبة والعمال عندهم عطلة فى هذا اليوم . قرية البيت تنتهز هذا اليوم فى صباحه المبكر وتقدم طعام الإفطار وفى الظهيرة تطهو أشهى أنواع المأكولات ، وفى العشاء أفخر أنواع الحلوى - من الأرز المطهى باللبن المحلى بالسكر .

وهكذا فيوم الجمعة هو أسعد أيام القرية ، لا يضاهيه إلا أيام الأعياد . أو عودة الحجيج من الأراضى المقدسة . وكذلك الأفراح . فى هذا اليوم الميمون الساعات المبارك النسمات يلتقى أهل القرية فى المسجد . وقد التقى « محمد ومحمود وأحمد» واستمعوا للخطبة التى كانت تدور حول الإيمان باليوم الآخر ، وقد تعرض الخطيب لوصف ما فى ذلك اليوم من أهوال . ولما انتهت صلاة الجمعة وخرج الناس بقى الثلاثة فى المسجد يتحدثون ويتشاورون ثم يعلو صوت محمود : إيه رأيكم تيجو نسافر بكرة للبندر نشترى شوية حاجات . وخاصة وأننا فى نهاية شهر شعبان ورمضان على الأبواب وكل سنة وأنتم بخير قال «أحمد» إذا كان ذلك كذلك نصلى الفجر إن شاء الله ونتوكل على الله . لا مانع . صلاة الفجر جماعة بالمسجد هى رياض الصالحين ومتعة الشباب الطيبين الذين يكثر عددهم فيها حتى إن المسجد يكاد لا يسع من يأتى إليه من كثرتهم - واتفق الثلاثة على

ذلك، وفى صباح اليوم التالى ذهبوا جميعًا وصلوا خلف الإمام الذى قال فى قنوته : اللهم إنا لا نسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه .

بعد الصلاة تجمع الثلاثة على باب المسجد ومعهم مطاياهم واتجهوا ناحية الشرق لأنه لا بد لهم أن يمروا بجانب الجبل . وما إن وصلوه حتى جلسوا لتناول طعام الإفطار . ثم أرادوا أن يستريحوا قليلا فدخلوا إلى مغارة ورقدوا قليلا ثم استيقظوا فوجدوا فم الغار قد سد عليهم بصخرة قوية لا يستطيعون زحزحتها أبدًا .

فنظر بعضهم إلى بعض وقد ألجمتهم المفاجأة ومضت لحظة رهيبة وعيونهم زائغة والقلق باد عليهم وقد جلسوا على الأرض بعد أن مدوا أيديهم إلى كل مكان عليها يفتحون لأنفسهم فتحة يخرجون منها . لكن دون جدوى ولما طال بهم الوقت قال «محمود» أليس الله معنا؟ قالا : نعم وربنا جل جلاله يقول : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾[الطلاق : ٢ ، ٣] .

إذا كان كذلك ونحن نؤمن به وقد تعلمنا من شيخنا : أن الإنسان يضرع إلى الله فى السراء والضراء . وقد قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة : ٣٥] . وقد قال شيخنا : الوسيلة التى يتقرب بها الإنسان لله هى العمل الصالح الذى يفعله الإنسان ونحن من رواد المساجد . فهيا بنا نتوجه إلى الله بقلوب طاهرة ونفوس وجلة . وكل شخص يناجى ربه بأفضل شىء فعله فى

حياته . واتجه كل شخص منهم إلى ربه يناجيه ، وقد رفع يديه إلى السماء فقال محمد قصته مع والديه . . ثم قال : «اللهم إنك تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء مرضاتك لأنك أمرتنى بالإحسان إليهما فإن كنت تعلم صدق نيتى وحسن طويتى ففرج عنا ما نحن فيه . فانفرجت الصخرة وظهر بصيص من النور . لكنهم لم يستطيعوا الخروج . إن الصخرة انفرجت لأن «محمدًا» كان صادقًا فى قوله فهو الذى آثر الأب والأم على أولاده امتثالا لأمر الله عز وجل حيث يقول سبحانه : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء : ٣٦] . فتوسل الرجل إلى الله بالعمل الصالح – عمل صالح مقبول ومطلوب – لذلك كانت الإجابة من الله سبحانه وظهر ذلك البصيص من النور .

هنا وقف «محمود» فى خشوع وتضرع وتذلل إلى الله مالك الملك ومدبر الأمر – وقال : اللهم إنك تعلم أننى كنت أحب ابنة عمى حبًا ملك على كل حياتى وكنت أتمناها إلى أن ساقها القدر وإلى وتمكنت منها فلما ذكرتنى بك تركتها خوفًا منك . اللهم إن كنت تعلم أننى فعلت ذلك ابتغاء مرضاتك ففرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة أكثر وظهر بصيص من النور أكبر . إلا أنهم لم يستطيعوا الخروج . ثم وقف «أحمد» فى تذلل لله وخشوع وخضوع . قال وصوته ممتزج بالبكاء والدموع على خديه تسيل : يا إله الكون يا عالم

الأسرار . ياخفي الألطاف . ياكريم الإحسان . نحن عبيدك وأنت الرب الكريم . تعلم ما نخفى وما نعلن ، يالطيف : يا الله يا غفور يا ودود يا الله يا واحد يا أحد يا فرد يا صمد ، يا قدوس أسألك بكل اسم سميت به نفسك وأنزلته فى كتابك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تفرج عنا ما نحن فيه فإنك تعلم صدق نيتنا وحسن طويتنا وإخلاصنا فى عملنا واجتهادنا فى طاعتك يارب الكون العظيم . يا عظيم القدر تعلم أننى لم أخن فى حياتى وأنه كان عندى أجير ترك بعض الأموال غيتها له حتى زكت وكثرت وسلمتها إليه طمعًا فى رضاك ووفاء بعهدك واتباعًا لسنة نبيك اللهم إن كنت تعلم صدق نيتى وحسن طويتى ففرج عنا ما نحن فيه ثم علا صوته بدعاء طيب وقد بدا عليه الإعياء والدموع أخذت تنهمر من عينيه . ثم هدأ وجلس مع أصدقائه وما هى إلا لحظات حتى انفرجت الصخرة وخرج الجميع يمشون فى الأرض الرحبة . وقد وجدوا مطاياهم فى انتظارهم ، وفى نفس واحد علا صوتهم «لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده . لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون . اللهم صل وسلم على سيد الوجود وسر الأسرار صاحب الرسالة الخاتمة سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . ثم انطلقوا إلى السوق يبيعون ويشترون . ولما رجعوا إلى قريتهم نزلوا على المسجد أولا وقاموا بأداء صلاة شكر لله كان قد علمها لهم الإمام . وهى سجدة طويلة يشكر الإنسان ربه فيها على نعمه الغامرة وفيوضات الإحسان عليه من رب العالمين ثم ذكروا ما

حدث لهم لإمام المسجد الذى استمع لهم بإنصات ثم قال بعد أن انتهوا من الكلام صدق الله العظيم ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾[الطلاق : ٢ ، ٣] . ثم استطرد يقول : الله أكبر . صدق الله وصدق رسوله الكريم الذى لا ينطق عن الهوى فقد روى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوا فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار فقالوا : إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم . قال رجل منهم : اللهم إنه كان لى أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلا ولا مالا . فنأى بى طلب الشجر يومًا فلم أرح عليهما حتى ناما فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين فكرهت أن أوقظهما وأن أغبق قبلهما أهلا أو مالا ، فلبثت والقدح على يدى أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر والصبية يتضاغون عند قدمى ، فاستيقظا فشربا غبوقهما - اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة ، فانفرجت شيئًا لا يستطيعون الخروج منه . قال الآخر : اللهم إنه كانت لى ابنة عم . كانت أحب الناس إلى وفى رواية : كنت أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء فأردتها عن نفسها فامتنعت منى حتى ألمت بها سنة من السنين فجاءتنى فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلى بينى وبين نفسها ففعلت حتى إذا قدرت عليها - وفى رواية - فلما قعدت بين رجليها

- قالت اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه فانصرفت عنها وهى أحب الناس إلىّ وتركت الذهب الذى أعطيتها - اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها، وقال الثالث : اللهم إنى استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذى له وذهب . فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال . فجاءنى بعد حين فقال : يا عبد الله أد إلىّ أجرى فقلت : كل ما ترى من أجرك : من الإبل والبقر، والغنم، والرقيق . فقال يا عبد الله لا تستهزئ بى؟ فقلت : لا أستهزئ بك، فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئًا . اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه . فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون» وهذا الحديث متفق عليه وقصة هؤلاء الثلاثة تشبه قصتكم يا أبطال لأننى لا أعلم عنكم إلا كل خير .

أنتم هنا تجاهدون النفس والهوى والشيطان . وما عملتموه وقلتموه شىء طيب وعمل عظيم . بسببه نجاكم الله وكتب لكم السلامة . فداوموا على فعل الصالحات وعمل الطيبات ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل : ٢٠] .

واعلموا يا أحباب : أن حب الله وحب رسوله والعمل الطيب كل ذلك ينجى الإنسان من المآزق والمهالك ويبعد عنه الشر ويحفظه من كل سوء وصدق الله العظيم : ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١] . وصدق الله العظيم وصدق رسوله الكريم وإن فى ذلك لعبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

والإنسانية وقد جربت قوانين البشر فكانت مشاكلها تزداد تعقيدا والجرائم تكثر، لكن قانون الله إذا طبقته البشرية سعدت وهدأت واستقرت وتلك نماذج ذكرناها لتكون العبرة والعظة أبلغ فعلينا أن نعمل العمل الصالح ونتخلق بالخلق الكريم ليكون الحل لكل مشاكلنا. وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الفصل الثالث

رجل اهتز له عرش الرحمن يوم مماته

على بعد حوالى ثلاثمائة ميل من مكة وفى الشمال منها تقع مدينة يثرب . وهى واحة خصيبة التربة . غزيرة المطر اشتهرت بالخصب والنماء . تحيط بها المزارع من جميع الجهات . ما عدا الجهة الغربية .

والمسافر من مكة إلى الشام يجد فيها حاجته من زاد وأمن ، ويحمل الماء من العيون الكثيرة بها ، والمنطقة بين قباء ويثرب من أخصب المناطق وثمار يثرب وفاكهتها وخضرها من تلك المنطقة وهى متنزه لأهل البلاد يخرجون إليها للتريض ويقيمون بها مدة بعد المرض للنقاهة واستعادة للنشاط وطلبًا للقوة ، فى شمال يثرب يقع جبل أحد ، وفى الشرق منطقة حرة واقم «وهى» مسكونة بأهم قبائل اليهود من بنى النضير وقريظة وبعض العشائر الأخرى وكذلك تسكن فيها أهم البطون الأوسية لبنى عبد الأشهل . وبنى ظفر وكان لبنى عبد الأشهل حصن واقم الذى سميت الحرة باسمه . لقد كانت منازل اليهود تحيط ببنى عبد الأشهل قبيلة سعد بن معاذ .

هذه المدينة التى هاجر إليها رسول الله ﷺ وصحابته كانت قبل الهجرة منقسمة إلى عدة أحياء . كل حى يسكنه قبائل عربية ويهودية . ورئيس القبيلة هو صاحب السلطان -الزعيم- يفزع إليه أفراد الحى عند هجوم العدو ويحتمى به النساء والعجزة والأطفال عند خروج الرجال للقتال وملاقاة العدو وكان لليهود معابدهم وبعض الأماكن

التى يجتمع فيها زعماؤهم للتشاور والبحث ونظرا لما كانت تتمتع به يثرب من زراعة ووجود حياة بها فإنها كثيراً ما كانت تتعرض للإغارة عليها من البدو الذين يجاورونها طمعا فيما يقع فى أيديهم من خيرات المدينة الخصيبة وسلب مواشيهم. لذلك كانت تتخذ من الإجراءات السلمية والحربية ماتكف به غارات المغيرين إما بالتحالف مع بعض القبائل أو دفع الإتاوات لرؤساء بعض القبائل المجاورة. أو إقامة الحصون. ولذلك كانت علاقة يثرب مع جيرانها من البدو علاقة حذر وتربص، وهى بذلك لم تتوسع فى علاقاتها مع القبائل العربية إلا بحسب ظروف الأخذ والعطاء من بيع وشراء. هذا من الخارج. أما من الداخل فقد كان للتنازع الدائم بين الأوس والخزرج ما فرق شملهم ومزق صفهم وأضعف قوتهم، والحرب سجال. ينتصر هذا ويهزم ذاك ثم تعود الدائرة وهكذا وكان إشعال الحرب بسبب التنافس على الرئاسة واحتلال مركز الصدارة فى يثرب وكثيرا ما كانوا يقولون لنا الصدر دون العالمين أو القبر. ثم إن الأوس كانوا يتملكون أفضل بقاع الأرض الزراعية ومن هنا كان وضعهم الاقتصادى أفضل، ومن المعلوم أن العامل الاقتصادى وهو المتحكم فى توجيه العلاقات العامة بين سكان يثرب. بل كان ذلك بين بطون القبيلة الواحدة ولم تستطع لحمة الدم أن تتغلب على الدوافع الاقتصادية التى كثيراً ما كانت تتنازع فيما بينها حيث المصلحة الاقتصادية فتحاول كل قبيلة أن تستولى على ما فى يد الأخرى من أراض ودور كما حدث مثلا بين بنى حارثة وبين بنى عبد الأشهل.

وهكذا كانت مدينة يثرب تغلى بالخلافات وتضارب المصالح والأهواء .

هذه يثرب التى يتطاول نخيلها بقامته العالية إلى عنان السماء ، وتتناثر عيون المياه بين أرجائها بينما الجبال تحيط بها بحيث إذا صعد أى إنسان على أى جبل استطاع أن يرى صورة مكتملة لمنطقة يثرب . . فى هذا المناخ الخصب وتلك المدينة العريقة والبيئة القبلية . كان يعيش سعد بن معاذ لأنه من قبيلة بنى عبد الأشهل .

وكان سيداً من يومه ساد قومه وكان يتكلم باسمهم . فمن ذلك أن الحرب قامت بين الأوس والخزرج فى موقعة تسمى بعاث . «وبعاث» اسم منطقة حول بيوت بنى قريظة . فيها مزرعة يقال لها فورى . فكان النصر فى أول النهار للخزرج .

ودارت الدائرة آخر النهار عليهم . وجعلت الأوس تحرق للخزرج نخلها ودورها فخرج سعد بن معاذ ووقف على باب بنى سلمة وأجارهم . لأن عمرو بن الجموح منهم وكان قد أجار سعدا قبل ذلك فى موقعة أخرى .

ألا يدل ذلك على علو قدر سعد من يومه وأنه كان سيداً بعمله وقيادته وريادته . ثم حفظ التاريخ عنه كذلك . أنه هو وأسيد بن الحضير كانا يحطمان الأصنام التى عكف القوم على عبادتها . ولما كان بعض أفراد القبيلة يرونهما وهما يسيران وتتطلع العيون إليهما وتبصر الأيدى وهى ترتفع وتكسر الأصنام دون اعتراض مما يدل على مركزهما .

إن الرجال الذين رأوا هذا المشهد لزموا الصمت ولم يفتح أحدهم فمه بكلمة لأن اللذين فعلا هذا - هما سعد بن معاذ وأسيد بن الحضير . وهما من أشراف القوم ومن عليتهم .

لقد كان هناك رجلان يرقبان الحدث الذى وقع من سعد بن معاذ وأسيد بن الحضير وهما يحطمان الأصنام ولم يحاولا أن يتكلما .

ورجع الرجلان إلى المدينة وتفرق كل واحد منهما إلى بيته فى صمت ومضت أيام وكلما نصب بنو الأشهل صنما كسره أحد الرجال . كان اليهود على الجانب الآخر يتحكمون فى التجارة ويمسكون بزمام الأمور الاقتصادية ومضت مدة اشتعلت الحرب وقامت فى موضع بالمدينة تسمى «بعاث» وقتل فى تلك المعركة خلق كثير من الأوس والخزرج وعصفت الحرب بالناس . ، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها أرادت النفوس أن تشعر بالهدوء لأن من اكتوى بنار الحرب طلب برد السلام والاطمئنان وفتح قلبه لنعمة السلام . لذلك كان يوم بعاث قدم الله به للإسلام لأنه كان بعد نزول الوحى على رسول الله ﷺ ، ومن المعلوم أن بعد الشدة تتطلع النفوس إلى حياة الاستقرار والهدوء . لذلك تلقف أهل يثرب دعوة النبى ﷺ بقبول حسن . لأن اليهود كانوا يتربصون بالأوس والخزرج ويقولون لهم أن نبيًا آن أوانه وحان حينه وسوف يتبعه اليهود ويحاربون الأوس والخزرج معه ويجلونهما عن تلك الديار . إلا أن مشيئة الله شرحت قلب رهط من الخزرج فأسلموا سرا وعادوا إلى يثرب وبشروا بالدعوة فانشرح لها قلب العديد من الأوس والخزرج الذين كتب الله لهم السبق إلى الخير والفوز والرضوان .

بيعة العقبة الأولى

تجاوبت أصداء الدعوة المحمدية فى ربوع يثرب وتذاكر الناس أمرها وحرص كل شخص على التعرف على منهجها خاصة وأن اليهود كانوا يهددونهم بظهور النبى الخاتم وأنهم سيسبقون الأوس والخزرج وينضمون إليه . لهذا كانت الاستجابة السريعة والانضمام إلى حزب الخير والتمسك بمبادئ القيم الدينية التى تسربت إلى نفوسهم عن طريق الوفد الأول الذى حمل رسالة الإسلام .

وفى موسم الحج الذى أعقب اللقاء سافر اثنا عشر رجلا لأداء الحج وفى نيتهم أن يجتمعوا مع صاحب الدعوة . وتم ذلك فعلا وحدث الاجتماع وتمت البيعة الأولى التى عرفت فى التاريخ ببيعة العقبة الأولى .

ولنسمع إلى حديث تلك البيعة من شاهد عيان ، إنه عبادة بن الصامت يتحدث إلى شخص آخر يقول : كنت فيمن حضر العقبة الأولى وكان عددنا اثنى عشر رجلا فبايعنا رسول الله ﷺ على :

١ - ألا نشرك بالله شيئًا . ٢ - ولا نسرق . ٣ - ولا نزنى . ٤ - ولا نقتل أولادنا . ٥ - ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا . ٦ - ولا نعصيه فى معروف . قال رسول الله ﷺ «فإن وفيتم فلكم الجنة ، وإن غشيتم شيئًا فأخذتم بحده فى الدنيا فهو كفارة له وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله تعالى إن شاء عذب وإن شاء غفر» .

قال المستمع : ومن بعث معكم؟

قال عبادة : إن رسول الله ﷺ بعث إلينا مصعب بن عمير ليعلمنا القرآن ويشرح لنا أسس العقيدة التى أساسها توحيد الله .

ولقد أصبح بذلك السفير الأول فى الإسلام .

قال عبادة . . نعم . . ونعم السفير كان .

إنه غرة فتيان أهل مكة وأجمل شبابها ذلك الذى تقلب فى النعمة وشب تحت خمائلها . إنه ربيب النعمة المدلل الذى كان حديث حسان مكة ولؤلؤة مجالسها والذى عرف برائحته الذكية وملابسه الناعمة الزاهية ، ولذلك كانت تحرص كل ندوة أن يكون فيها مصعب لأناقة مظهره ورجاحة عقله ، ومع ذلك ورغم هذا النعيم والرفاهية فقد أسلم وحسن إسلامه ومع أن أمه هددته بقطع المال وإغلاق أبواب النعيم أمامه إن لم يعد إلى عبادة أصنامهم إلا أنه رفض النعيم وترك المال وأسلم لله وحسن إسلامه وصدق فى يقينه . لذلك اختاره الرسول ﷺ ليكون أول سفير للإسلام لأنه معروف بكياسته وفطانته وقدرته على مواجهة الأمور ، وحلها بلباقة ومهارة ، وذلك تكريم للشباب لأن المسلمين كان فيهم من هو أكبر منه سنا وأكثر عشيرة لكن الاختيار لمثل هذا العمل يكون للكفاءة والمرونة والقدرة على الأداء والعطاء .

إن مصعب بن عمير حمل الأمانة ، أمانة التكليف ، وذهب إلى يثرب وليس فيها كثير ممن دخل فى الإسلام لكنه استعان بالله واعتمد عليه وعلى رجاحة عقله وكريم خلقه . ولذلك أثبت بكياسته وحسن بلائه أن الرجال الذين رباهم الإسلام وصاغهم بمنهاجه الكريم أثبتوا جدارتهم وأتموا رسالتهم ، وها أنت ترى أنه قد تعرض لمواقف كان يمكن أن تؤدى به وأن تطيح بمن أسلم معه لولا فطانة عقله وسرعة بديهته .

مصعب فى يثرب

نزل مصعب فى بيت أسعد بن زرارة لأنه أول من حمل الإسلام حيث كان قد خرج هو وذكوان ابن عمه قيس إلى مكة يتنافران إلى عتبة بن ربيعة فسمعا برسول الله ﷺ فأتياه فعرض عليهما الإسلام وقرأ عليهما القرآن فأسلما وكانا أول من قدم بالإسلام للمدينة . وكان أسعد من أرجح الناس عقلا وأعلاهم قدراً .

وفى ليلة العقبة أثناء المبايعة أخذ بيد رسول الله ﷺ وقال :

أيها الناس هل تدرون علام تبايعون محمداً؟ إنكم تبايعون على أن تحاربوا العرب والعجم والجن والإنس . قالوا : نحن حرب لمن حارب وسلم لمن سالم . فقال : أسعد بن زرارة : يارسول الله اشترط على فقال رسول الله ﷺ : تبايعوننى على أن تشهدوا أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله وتقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة . والسمع والطاعة ولا تنازعوا الأمر أهله وتمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأهليكم ، قالوا : نعم . قال قائل : هذا لك يارسول الله فما لنا؟ قال : الجنة والنصر .

إن أسعد بن زرارة أخذ هو ومصعب يدعوان إلى الإسلام خاصة بنى الأشهل وبنى ظفر . لأنهما من أقوى الأنصار صوتا مع أن سعد ابن معاذ وهو من قادة بنى الأشهل ابن خالة أسعد بن زرارة .

وسعد ما زال على دين قومه لم يدخل فى الإسلام بعد ومعه أسيد ابن الحضير .

إسلام سعد بن معاذ

قام مصعب بالدعوة إلى الله وانتشر الإسلام بين الناس وبدأ يتسرب إلى قلوب الرجال والنساء الصغار والشباب والكبار .

خرج أسيد بن الحضير فوجد أن مصعبًا يعظ الناس فشهر سيفه وظهر الغضب على وجهه وهو يصيح ، ما هذا الذى جاء إلينا من مكة لينفر الناس عن دين الآباء والأجداد . والمسلمون الذين كانوا مع معصب دب الخوف فى قلوبهم إشفاقًا على مصعب وخوفا من قيام حرب أهلية طاحنة يكتوى بها الجميع وما زال فى القلوب أشياء من حرب بعاث وموقعتها . لكن مصعب نظر إلى أسيد وقال : أولا تجلس معنا فتسمع فإن رضيت أمرنا قبلته وإن كرهته كففنا عنك ما تكره - تلك الكلمات صدرت من فم مصعب ومعها الهدوء وأحاطها بالوداعة وغشيتها أنوار الحق ، وأسيد كان رجلا فيه ذكاء وموزون العقل لذلك استعمل عقله وجلس وقرأ مصعب القرآن وشرح وجهة النظر الإسلامية وأنها تأمر بمكارم الأخلاق وتحث على الفضيلة وتنهى عن الرذيلة ، وما أن فرغ مصعب من حديثه حتى هتف أسيد :

ألا ما أحسن هذا القول وأصدقه . كيف يصنع من يريد الدخول فى هذا الدين؟ قال مصعب : يطهر ثوبه ، ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله . لكن الفرح قد غمر كل الحاضرين فهللوا تهليلة ارتجت لها الأرض رجًا . لقد أسلم أسيد وأخذ حربته وانصرف إلى سعد بن معاذ الذى كان يجلس فى نادى قومه فلما رأى أسيدًا قال : أحلف بالله لقد جاء أسيد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم .

وقف سعد بن معاذ، وقال لأسيد: ماذا فعلت في هذا الرجل الذي جمع الناس حوله ويسفه أحلامنا ويؤلب علينا ضعفاءنا.

قال أسيد: ما رأيت بأسا وقد كلمته ومن معه ونهيتهم فقالوا نفعل.

قال سعد: إذن سيكف عن دعوته.

قال أسيد: لقد سمعت أن بنى حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه وهم يعلمون أنه ابن خالتك وأرادوا أن يحقروك.

ولقد أراد أسيد بهذا الكلام أن يثير الحمية فى نفس سعد حتى إذا ذهب فلم يجد شيئًا سمع من مصعب ما يشرح الصدر ويدخله فى الإسلام.

قام سعد منتفضًا وأخذ حربته وخرج مسرعًا وفى الطريق وجد مصعبًا ومعه أسعد بن زرارة وبعض المسلمين وهم جلوس فى ثبات.

قال أسعد بن زرارة لمصعب: هذا سيد قومه إن يتبعك لا يتخلف منهم أحد.

قال مصعب لسعد: ألا تجلس معنا فتسمع فإن رضيت أمرًا رغبت فيه قبلته وإن كرهت كففنا عنك ما تكره.

قال سعد: أنصفت فهات ما عندك.

فجلس فقرأ مصعب القرآن وبدأ بقول الله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ① وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ② إِنَّا جَعَلْنَاهُ

قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴾[الزخرف : ١-٦].

فظهر البشر على وجهه وقال لمصعب :

كيف تصنعون إذا أنتم دخلتم فى الإسلام؟ قال : نغتسل فنتطهر ثم نشهد بالوحدانية لله والنبوة لمحمد . فأسلم .

ومن لحظتها وهو داع إلى الإسلام وقد توجه إلى قومه وقال : يابنى عبد الأشهل كيف تعلمون أمرى فيكم؟ قالوا سيدنا وأفضلنا رأيا وأيمننا نقيبة قال : فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله .

وانضم سعد إلى الموكب الطاهر والوفد المبارك . أسعد بن زرارة ومصعب وأخذ الجميع يدعون إلى الإسلام حتى دخل الإسلام كل بيت وانتشر فى ربوع المدينة وهيئت المدينة لاستقبال الجمع العظيم فى صحبة خير الناس سيدنا محمد بن عبدالله .

أهذا سعد بن معاذ الذى كان بالأمس هو العدو اللدود لمصعب بن عمير ومن معه .

ها هو الآن يحول داره لتكون نقطة البدء فى الدعوة إلى الله علنا . وشع منها النور على بنى الأشهل فأسلموا جميعًا وكانوا فى أول المستقبلين للنبى العظيم .

مـؤاخـاة

وصل المهاجرون إلى المدينة واستقر بهم المقام فيها. وبدأ الرسول ﷺ يدعم الروابط ويقوى الصلات بين المهاجرين الذين تركوا أموالهم وديارهم فى سبيل العقيدة التى آمنوا بها وأخلصوا وتحملوا المشاق فى سبيل الحفاظ عليها، وضحوا بالغالى والرخيص وكل شىء على أن تبقى العقيدة بين جوانحهم تغمر نفوسهم بالسعادة، وبين الأنصار الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبل ويحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة. وفى سبيل ذلك آخى الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار، وكان حظ سعد بن معاذ أن تمت المؤاخاة بينه وبين سعد بن أبى وقاص وهو ثالث شخص دخل فى الإسلام فى مكة ولاقى العنت والإرهاق وتحمل الشدائد وصبر واحتسب عند الله ما لاقاه.

ثم إن سعد بن أبى وقاص أسلم وسنه سبع عشرة سنة. وهو أول من رمى بسهم فى الإسلام، ويقول فى سياق هذا. والله إنى لأول رجل من العرب رمى بسهم فى سبيل الله، ولقد كنا نغزو مع رسول الله ﷺ وما لنا طعام نأكله إلا ورق الحبلة وهذا التمر حتى إن أحدنا ليضع كما تضع الشاة مالنا خلط. ثم بنو أسد يغروننى عن الدين لقد جئنت إذًا وضل عملى. ولمنزلة سعد بن أبى وقاص جمع الرسول ﷺ له حق أبويه فى الفداء فقال فيما رواه على بن أبى طالب كرم الله وجهه قال: ما سمعت رسول الله ﷺ يفدى أحدًا بأبويه إلا سعدًا فإنى سمعته يقول يوم أحد: ارم سعد فداك أبى وأمى.

إن أصحاب الفضل تهفو أرواحهم وتتلاقى قلوبهم والشىء إلى مثيله ينجذب . وإنما يعرف الفضل لذوى الفضل أهل الفضل . لذلك آخى رسول الله ﷺ بين سعد بن معاذ وسعد بن أبى وقاص . أخوة كان من نتائجها الحب الدائم والعطف الزائد والتضامن فى كل خير والمسارعة إلى كل فضيلة ونشر القيم الأخلاقية الرفيعة فى دنيا الناس ، إن الغرض من هذا النوع من التآلف هو إيجاد الروابط التى تربط بين آحاد الجماعة الإسلامية وتكوين رأى عام ووحدة تضم بها العناصر المختلفة الأنساب والأماكن .

إن المهاجرين من بطون مختلفة ، وقبائل متفرقة ، وأهل يثرب أنهار الدماء بينهم لم تجف . فجاء الإسلام بقيمه إلى ذلك الجمع الذى كان متنافرا فألف بين قلوبهم . والأم إنما تتكون بتأليف القلوب المتنافرة وجمعها على الحق . وأشد ما يجمع القلوب توثيقًا الإيمان بالله والالتفاف حول أطهر شخصية ، وهو محمد بن عبدالله . ولقد أثمرت تلك الأخوة ثمرتها وربطت بين قلوب المؤمنين بالمودة هذا مع أن المهاجرين لم يكونوا طامعين فى غير الإيواء ، لكن الأنصار كانوا أكرم من ذلك بكثير فقد روى البخارى أن الأنصار قالت للنبى ﷺ : اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل . قال عليه الصلاة والسلام : لا . . ويشركونكم فى التمر قالوا سمعنا وأطعنا ، ولقد كان بنو عبد الأشهل – قبيلة – سعد مفتحة الأبواب للمهاجرين . وكانت أموالهم كلها تحت تصرفهم فى غير من ولا أذى ومضت الأيام ويد سعد فى يد سعد يلتقيان على الود ويفترقان على أمل اللقاء والأخوة بينهم تزداد أواصرها . وليس هناك ما يعكر الصفو فآيات القرآن تتنزل ندية على

قلب النبى الخاتم ويسمعها الزمن من فمه الطهور وهو يرددها لتسمع الدنيا بالخير العظيم يملؤها بالفضيلة .

جهاد سعد

إن سعد بن معاذ لم يتخلف عن أى موطن للخير ولكنه كان يعمل بكل طاقاته لنشر الإسلام وخاصة أنه أسلم وسنه إحدى وثلاثون سنة . ثم إنه لقى ربه وسنه سبع وثلاثون . لقد عاش فى الإسلام ست سنوات ما من يوم مر عليه إلا وسجل عملاً عظيمًا ورائعًا وبطولة فذة فى سبيل تدعيم الإسلام ونشره بين الآفاق إلى أن كانت غزوة بدر الكبرى ، قال مصعب بن عمير إن سعد بن معاذ كان حامل راية الأوس يوم بدر ونقف أمام تلك الغزوة لنتبين منها بطولة سعد النادرة .

لقد خرج رسول الله ﷺ لملاقاة عير قريش وكان قائدها أبا سفيان الذى غير طريق العير بعد أن أرسل إلى أهل مكة يطلب نجدتهم ، ولما تغير الموقف أشار أبو جهل - لعنه الله- على قريش أن يمكثوا قليلا لتسمع بهم العرب ولكن النبى ﷺ خرج مع صحابته وهم لا يريدون الحرب فاستشار أصحابه ، وهذه طريقة فريدة فى العمل الجماعى وتدعيم الديمقراطية الحقة . وقال النبى ﷺ لصحابته أشيروا على أيها الناس . فقام أبو بكر رضى الله عنه وتكلم وعمر رضى الله عنه وأجاد فى عرض الموضوع ووقف العديد من الصحابة وتكلموا لكن النبى العظيم كان يقول لصحابته . أشيروا على أيها الناس ، وينهض سعد بن معاذ ويقول كأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال : نعم . فيقول سعد يا رسول الله . لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو

الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا فامض يارسول الله لما أردت فنحن معك والذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا إنا لصبر فى الحرب صدق فى اللقاء ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك. فسر على بركة الله. لقد ظهر البشر فى وجه الرسول العظيم صلوات الله عليه وسلامه وقال لصحابته. «سيروا وأبشروا فإن الله وعدنى إحدى الطائفتين. والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم».

أليست هذه أعظم مواقف البطولة الفائقة التى عقمت الدنيا أن تأتى بمثلها.

ثم هو فى الغزوة يصول ويجول يحمل الراية ويتقدم فى المعركة غير هياب ولا وجل.

إن المسلمين خاضوا معركة بدر بثبات قوة وعزيمة فتية كان الواحد منهم يعانق الموت كما يعانق الإنسان أحب شىء إليه. وسعد بن معاذ لم يبتعد عن النبى الكريم ولم تغب عينه عن الجسد الطاهر الذى كان فى الجيش كسائر جنده فى وسط المعركة يشرف على الجند ويوجههم. لقد اشترك فى شدائد الحرب كما اشترك فى ثمراتها.

يقول على بن أبى طالب رضى الله عنه: كنا إذا اشتد الخطب وحمى الوطيس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه. ولقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله وهو أقرب إلى العدو. كان يحرص على الثبات وعدم الفرار. فكما كان يبتهل إلى الله ليكون النصر من عنده، كان يبث العزيمة فى نفوس

أصحابه فقيادته ﷺ كانت حكيمة، ورحيمة، وحازمة، وقوية، وعادلة. ثم هو ﷺ كان يشعر الجند بأنهم يعملون مختارين ولا يعملون مسخرين وأن الثواب العظيم والأجر الكبير والفوز بالنعيم بالثبات مع ذكر الله وقتل العدو.

إن سعد بن معاذ كان من أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ وها نحن نراه يتقدم من رسول الله ﷺ ويقترح عليه بناء عريش، يروى ابن إسحاق أن سعد بن معاذ قال: يانبى الله: ألا نبنى لك عريشًا تكون فيه ونعد عندك ركائبك ثم نلقى عدونا فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببناه وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا فقد تخلف عنك أقوام يارسول الله ما نحن أشد حبًا لك منهم. ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك. فأثنى عليه النبى ﷺ ودعا له بالخير.

يدل على الحب العميق لشخصية النبى الكامل والمرشد الرائد.

لقد بنى العريش - غرفة العمليات - ووقف فيها النبى الكريم يدعو الله ويبتهل إليه ويقول: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض اللهم أنجز لى ما وعدتنى اللهم نصرك».

لقد كان أبو بكر رضى الله عنه على باب العريش ثم دخل إليه يسوى رداء النبى الكريم عليه حيث قد سقط وسعد بن معاذ على باب العريش متوشح السيف فى نفر من الأنصار يحرسون النبى ﷺ يخافون كرة العدو.

ودارت المعركة والنصر فى ركب المسلمين، أخذوا يقتلون ويأسرون والمشركون يهربون من شدة وقع السيوف عليهم ولم يكن فى خاطرهم ما حدث لأنهم استهانوا بالمسلمين لقلة عددهم وضعف عدتهم ونسى هؤلاء أن النصر من عند الله.

وكان المسلمون يأسرون من المشركين من وصلت أيديهم إليه لكن سعد بن معاذ كان من رأيه قتل كل مشرك مهما كان لأن فى ذلك راحة للمسلمين الذين تحملوا العنت والظلم والإرهاق من هؤلاء الذين جاءوا ليحاربوا على أرض غير أرضهم لقد كان سعد بن معاذ يحوط عريش النبى ﷺ وأعلن عن تلك الرغبة أى قتل كل مشرك، وهنا يقول ابن إسحاق. رأى رسول الله ﷺ فى وجه سعد بن معاذ الكراهية لما يصنع الناس فقال له رسول الله ﷺ : «والله لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم؟ فقال: أجل والله يارسول الله كانت أول واقعة أوقعها الله تعالى بأهل الشرك. فكان الإثخان فى القتل بأهل الشرك أحب إلى من استبقاء أحد. ولقد نزل القرآن بموافقة رأى سعد ابن معاذ قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧]

ومضت الأيام وسعد بن معاذ يزداد قربًا روحيًا وجسديًا من رسول الله ﷺ بالحب. بالسعادة من رؤيته وكانت غزوة أحد، انتصر المسلمون بقيادة النبى العظيم عندما تمسك المسلمون بتوجيهات رسول الله ﷺ . وكانت الدائرة على المشركين ثم كان أن خالف الرماة أمر

النبى ﷺ وأقبلوا على الغنائم يسلبونها فكان ما كان من أمر تلك المحن التى محص الله بها أصحاب القلوب النظيفة والنفوس الكبيرة من أصحاب المطامع وأرباب المنافع . لقد انكشف المسلمون فأصاب منهم العدو وكان يوم بلاء وتمحيص أكرم الله من أكرم من المسلمين بالشهادة وكاد أن يخلص العدو إلى رسول الله ﷺ ووقع فى حفرة من الحفر فأصيبت رباعيته وشج فى وجهه وشقت إحدى شفتيه، لكن المسلمين ذادوا عن النبى العظيم، وأحاط به أصحاب القلوب الطاهرة ومن بينهم سعد بن معاذ لم يهرب ولم ينقلب إلى الغنائم . . إن المسلمين فقدوا سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير . لكن كل ذلك مضت حدته لأن رسول الله ﷺ بخير . إن سعد ابن معاذ ثبت فى خلال تلك الفترة وصمد صمود الأبطال وقاتل قتال الشجعان .

إن سعد بن معاذ قطب من أقطاب الروحية الإسلامية ونفحة من نفحات الإشراقات القدسية، وسر من أسرار الهداية الربانية . إنه فى ميدان الحرب قائد عظيم يسلم زمامه إلى القائد الأعظم سيدنا محمد .

وفى نفس الوقت هو ثورة على النفوس الشهوانية . إنه طبيب قلوب وجامعة للتربية الإسلامية . هداه الله للخير وآيات الحق تهديه إلى الصراط المستقيم لقد كان جليل القدر فى روحانية سامية وعمل دائب وصلة بالله لا تتزعزع، عاش سعد بن معاذ يدعو إلى الله ويعمل فى كل ميدان يعلم أن فيه الخير للإنسانية ومن وراء ذلك رضا الله عز وجل .

كان يشارك فى الغزوات لم يتخلف أبدا عن أى معركة ولقد رأيناه فى بدر وفى أحد عندما ثبت فى موقفه ولقد روى الرواة أنه فى تلك المعركة لقى أنس بن النضير فصاح به وقال : واهًا لريح الجنة . إنى لأشم رائحتها لقد قاتل قتال الأبطال .

مواقف أخرى

جاءت غزوة الخندق وفيها ظهرت عبقرية سعد السياسية علاوة على البطولة فى الميدان، وحديث غزوة الخندق هو أن أهل مكة ضعفت نفوسهم أمام قوة النبى الأمين وبحثوا لهم عن مساعد يشد أزرهم لأنهم بدأوا يهادنون المسلمين فكروا فى جمع الجموع وتحزيب الأحزاب لينقضوا على المسلمين يقتلونهم أو يقلعونهم من المدينة، وهنا اتصل المشركون باليهود وقالوا لهم . إنكم أهل الكتاب الأول وتعلمون ما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد . أفديننا خير أم دين محمد؟ قال اليهود أهل الكتاب الذين يدعون أنهم يتبعون التوراة بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق، هكذا نرى حقدهم وعنادهم دفعهم إلى الكفر فى دينهم وفى هذا يقول الله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴾ [النساء : ٥١] .

من هنا يتبين أن اليهود تعاونوا مع المشركين . لقد اجتمعت قريش واليهود وغطفان، وخرجوا قبلتهم المدينة وأرسل أبو سفيان من يهدد النبى ﷺ بكلمات فى خطاب جاء فيه : أما بعد، فإنك قد قتلت

أبطالنا ويتمت أطفالنا ورملت النساء والآن قد جمعت القبائل والعشائر يطلبون قتالك وقلع آثارك وقد جئنا إليك نريد نصف نخل المدينة فإذا أجبتنا إلى ذلك وإلا أبشر بخراب الديار وقلع الآثار .

فلما بلغ النبى ﷺ ذلك جمع أصحابه استشارهم فيما يصنع مع تلك الجموع ، وخصوصًا أن بنى قريظة على مقربة من المؤمنين يدلونهم على عورات المسلمين ، ولابد من عمل يكون فيه الوقاية . تقدم سلمان الفارسى وكان من صفوة الصحابة وأشار بحفر الخندق ، وقال كنا فى فارس إذا حوصرنا خندقنا ، ووفق على هذا الرأى وجمع الرسول ﷺ أصحابه ليحفروا الخندق الذى كان عملا شاقًا . لكن المؤمنين أقبلوا على العمل ببشر وترحاب ، وعمل النبى ﷺ معهم فى حفر الخندق حتى قال الصحابة . . لئن جلسنا والنبى يعمل لذاك منا العمل المضلل . ثم يقولون . نحن الذين بايعوا محمدا . . على الإسلام ما بقينا أبدًا .

إن النبى ﷺ قسم العمل فى الحفر بين الأنصار والمهاجرين ، ولقد حدثت مفارقات عدة فى هذه الغزوة وظهر للصحابة العديد والكثير من المعجزات الحسية التى رأوها وشاهدوها ، ثم أقبلت قريش بخيلها ورجالها ومعهم أرباب الكفر والنفاق ممن أكل الحقد قلبهم وعدد قريش أربعة آلاف وعدد من معهم ستة آلاف وقريش لها قيادة فى يد أبى سفيان وقيادة غطفان بيد عيينة بن حصن ، وهناك قيادة أخرى . المهم أن قريشًا ومن جاء معهم ظنوا أنهم فى رحلة سيغيرون على المدينة يقتلون الرجال ويسبون الأطفال والنساء ويجمعون الغنائم ، فإذا بهم قد أذهلتهم المفاجأة فهذا عمل لم تعرفه العرب ولم يسمع به

اليهود، فمن أين لمحمد هذا العمل ؟ومن الذى دله على ذلك؟ ثم هم لا قبل لهم بدخول المدينة، ولهذا فإن القضاء على محمد وأصحابه ليس بالأمر السهل. لذلك فهم سيدبرون أمرا آخر. الخبث وسوء الطوية دفع حيى بن أخطب أن يذهب إلى كعب بن أسد الذى راوغ النبى ﷺ كثيرًا، وحيى هذا من زعماء اليهود وكعب وكذلك فاتفق معه على نقض العهد، وقال حيى: يا كعب لقد جئتك بعز الدهر وببحر طام، جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلهم على جانب أحد قد عاهدونى على أن لا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه.

قال كعب: جئتنى بذل الدهر، فلم يزل حيى يتحايل بالقول حتى سمع له واستجاب لما يطلب، وبذلك ظهر الطبع اليهودى فهو لا يفى بعهد أبدا.

إن كعبًا أمنَ على مستقبله عندما علم بأن القوة مع قريش التى ستستأصل محمداً بعد لحظات لأن القوة على أبواب المدينة التى ستركع أمام الغزاة بعد قليل، وانضم كعب بقبيلته بنى قريظة إلى الأحزاب، ووصل الخبر إلى النبى ﷺ وهو الحريص على قومه الأمين على مصالحهم، لذلك اختار قيادة سياسية أرسلها إلى بنى قريظة يستوثق الخبر أولا قبل أن يبت بالرأى فى هذا الموضوع فاختار «سيد الأوس» سعد بن معاذ، وسيد الخزرج سعد بن عبادة ومعهما عبدالله بن رواحة وقال لهم. انطلقوا حتى تنظروا ما بلغنا، وذهب الوفد فوجدوا اليهود على أخبث حال. نالوا من رسول الله ﷺ، فلم يطق سعد بن معاذ صبرا وهو المحب للرسول العظيم ﷺ وبدأ

سعد يشتم اليهود ويشتمونه فقال سعد بن عبادة . دع عنك مشاتمتهم فما بيننا وبينهم أدنى من المشاتمة ، وعاد الوفد وذكروا لرسول الله ﷺ ما قيل .

لقد اشتد الموقف لأن المشركين جاءوا من أعلى واليهود جاءوا وتحركوا من أسفل ، والمنافقون في الداخل يوهنون العزائم بما يرددون من أقوال ، وقال ضعاف الإيمان إن محمدًا كان يعدنا بكنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط ، وهؤلاء يستأذنون في عدم الخروج للقتال ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا﴾ [الأحزاب : ١٣] لقد صور القرآن ذلك في سورة الأحزاب حيث يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا ﴾
[الأحزاب : ٩- ١٢]

إن العبقرية السياسية لرسول الله ﷺ في أعلى مقام ، لذلك أراد أن يخذل المشركين بعضهم عن بعض : فأرسل إلى عيينة بن حصن يطلب منه باعتباره قائد غطفان ومن معها المصالحة على أن يأخذوا ثلث ثمار المدينة فقبلوا ذلك طمعا منهم وكتبوا من جانبهم كتابا بعثوا به إلى النبي ﷺ لكن النبي ﷺ بعث إلى سعد بن معاذ سيد الأوس

وسعد بن عبادة سيد الخزرج فاستشارهم فى ذلك فقالا له : يا رسول الله أهذا الأمر تحبه فتصنعه أم شيء أمرك الله به لابد لنا من العمل؟

قال النبى ﷺ : بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأنى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم إلى أمر ما، قال سعد بن معاذ : يا رسول الله كنا نحن وهؤلاء على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا شراء أو بيعًا، أفحين أكرمنا الله تعالى بالإسلام وهدانا إليه وأعزنا به وبك نعطيهم أموالنا والله ما لنا بهذا حاجة والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم .

قال رسول الله ﷺ : فأنت وذاك، فتناول سعد بن معاذ الكتاب المرسل من عيينة بن حصن فضرب على ما فيه وبذلك انتهت إرادة الصلح .

مواقف رائدة

وما دمنا نتكلم عن مواقف البطولة والسياسة والقدرة والمهارة فى تلك الغزوة فإننا نذكر هذا الموقف العظيم للسيدة صفية بنت عبد المطلب عمة النبى ﷺ ، فقد كانت فى حصن لحسان بن ثابت مع جمع من النساء والصبيان ولم يكن الحجاب قد نزل .

قالت صفية فمر بنا رجل من اليهود فجعل يطوف بالحصن وكانت قريظة قد قطعت ما بينها وبين الرسول ﷺ فعلمت صفية أن هذا اليهودى يطوف بالحصن لأنه عين يتتبع عورات المسلمين قالت السيدة

صفية لحسان ليس بيننا أحد يدفع عنا ورسول الله ﷺ والمسلمون على الحدود يذودون عنا وإني والله ما آمن من هذا اليهودى أن يدلى بعوراتنا من ورائنا، فانزل إليه فاقتله، قال حسان: يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب فأنا ليس لى فى هذا المجال.

هنا شدت السيدة صفية على وسطها ثم أخذت عمودا ونزلت فضربت اليهودى بالعمود فقتلته ثم نادت حسانًا فقالت انزل إليه فاسلبه فإنه لم يمنعنى من سلبه إلا أنه رجل.

شجاعة نادرة الكل تعلمها من هدى الإسلام وتوجيه سيدنا محمد ابن عبد الله النبى العظيم.

تراشق الجمعان بعد حصار واشتد البلاء على رسول الله ﷺ والذين معهم، واستمر ذلك قرابة عشرين يوما، والشدة ليست على المسلمين وحدهم بل الأحزاب قل زادهم واشتد البرد عليهم، وأصابهم سوء الظن بعضهم بالبعض وكانت هناك زعزعة نفسية ثم زاد البلاء عليهم واشتد الكرب وأرسل الله ريحًا صرصرا عاتية، وجاءهم الخوف واستولى عليهم الفزع بعد أحداث عظيمة لا مجال لسردها.

﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ [الأحزاب: ٢٥].

وهذه الغزوة تؤكد الفشل والخيبة على المشركين واليهود، ومن خالفهم، وهنا يقول الحق سبحانه﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا

﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾[الأحزاب : ٢٦، ٢٧].

إن اليهود مالئوا المشركين وعاونوا الأحزاب وأقدموا على مهاجمة المدينة من جانبهم خيانة وغدرا وكشفوا المسلمين ونقضوا العهد ، وها هم أهل مكة رجعوا ومن معهم وبقى هؤلاء فامتلأت قلوبهم بالرعب والخوف لأن العقاب من جنس العمل، إن دورهم كان أحط من القتال لأنهم كانوا سيخربون المدينة من الداخل إذا نجحت خطتهم.

مع سعد بن معاذ

أثناء الحصار لبس المسلمون لباس الحرب ومعهم سعد ومع أنه كان يقوم بدور سياسى استشارى له أهميته إلا أنه كان فى مقدمة الصفوف لم يتأخر أبدًا ولذلك أصيب فى غزوة الخندق بسهم ونزف دمه وسال وأمر النبى ﷺ أن يحمل إلى المسجد وتنصب له خيمة فى المسجد يمرض فيها حتى يكون على قرب من رسول الله ﷺ ونزل سعد فى الخيمة داخل المسجد وهو على صلة بالله يدعوه ويشكره ويقول: اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئًا فأبق لها فإنه لا قوم أحب إلى أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه، وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعل ما أصابنى اليوم طريقًا للشهادة، ولا تمتنى حتى تقر عينى من بنى قريظة.

لقد كان على صلة بالقيادة الدائمة للتوجيه العسكرى يتعرف على الأخبار ويشير بالرأى لذلك استجاب الله دعوته، فكان الجرح الذى أصابه هو الطريق إلى الشهادة، وشفى الله قلبه من بنى قريظة ذلك

لأنه بعد أن هزم الله المشركين وفرق جمعهم سار الرسول ﷺ إلى بنى قريظة وقال لأصحابه : من كان يؤمن بالله سامعًا مطيعًا فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة ، وأمر النبى ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم وحمل الراية على بن أبى طالب وسار الجيش حتى إذا اقترب من حصون بنى قريظة سمع على منهم قولا قبيحًا فى رسول الله ﷺ فتغير وجهه وفطن الرسول ﷺ لذلك فنادى بأعلى صوته يا إخوان القردة هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته ، وحاصر المسلمون بنى قريظة خمسا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار ، وكان فى الحصن كعب بن أسد وحيى بن أخطب الذى خير اليهود بين واحد من ثلاثة ، الأولى : الإيمان بمحمد وخاصة أنه ثبت عندهم أنه نبى مرسل وهو المذكور فى كتبهم فقالت اليهود- لا- الثانية أن يقاتلوا منفردين فقالوا لا ، الثالثة : أن يبدأوا القتال يوم السبت ربما يكون محمد غير مستعد فى هذا اليوم فيأخذوه على غرة ، وإذا لم يكن هذا ولا ذاك فعليهم أن يستسلموا وإن كانوا لا يعرفون النتيجة ، فرضوا بذلك وأرسلوا إلى النبى ﷺ فأرسل إليهم أبا لبابة يفاوضهم فبكوا أمامه وأجهشوا بالبكاء فرق لهم وأشار بيده إلى حلقه - يعنى أن الرسول ﷺ سوف يقتلهم - وشعر أبو لبابة أنه خان الأمانة الموكولة إليه فرجع مسرعا ولم يتكلم بشىء وذهب إلى المسجد وقال لا أبرح مكانى حتى يتوب الله على ، وهذا أعلى درجات يقظة الضمير ، وبذلك تبنى الأمم وتتبوأ مكان الريادة ما دام الضمير يقظًا غير غافل ، ولذلك لما علم بحاله رسول الله ﷺ قال أما والله لو جاءنى لاستغفرت له ، وتلك مزايا القيادة الحكيمة- العفو وسعة الصدر والتسامح ما دام المذنب قد عرف ذنبه وأعلن توبته .

دور سعد

بعد موقف أبى لبابة أرسل النبى ﷺ إلى سيد الأوس سعد بن معاذ فجيء به محمولا من خيمته التى كان يمرّض فيها لم يتباطأ رغم ما به من إعياء وما يشعر به من مرض، إنه لم يستطع السير ومع هذا حمل وهو سعيد جدًا لأنه يستجيب لطلب أحب الناس إليه، وما أن ظهر وتقابل مع رسول الله ﷺ حتى التفت إلى أصحابه وقال لهم: «قوموا إلى سيدكم» فقاموا إليه وعلم أن رسول الله ﷺ ولاه الأمر وفوضه فى أن يحكم فى هؤلاء اليهود.

وبكى اليهود بين يديه وأجهش الصبيان والنساء ونظر سعد إليهم: أليس هؤلاء الذين خانوا وغدروا وقالوا القول السيئ فى رسول الله ﷺ، هل تأخذه شفقة عليهم، وفيهم بعض الناس قالوا يا سعد إنما ولاك الله لتحسن فيهم فلما أكثروا عليه قال لهم: لقد آن لسعد ألا تأخذه فى الله لومة لائم، ثم بعد كلام طويل ومفاوضات واليهود بمكرهم وخبثهم أطالوا مدة المفاوضات ومع ذلك انتهت المفاوضات بأن قال يا بنى قريظة أحكم فيكم بما يأتى:

(١) تقتل الرجال.

(٢) تقسم الأموال.

(٣) تسبى الذرارى والنساء

هذا ما حكم به سعد بن معاذ وما أن بلغ الخبر إلى رسول الله ﷺ حتى قال: يا سعد حكمت بحكم الله من فوق سبع سموات.

لقد استراح ضمير سعد وهدأت نفسه واستقر، ومع ذلك كان لسانه لله شاكرًا ولفضله ذاكرًا أن وفقه لهذا الحكم.

إن رسول الله ﷺ كان كالشمس. الكل يستمتع بنورها ويظن أنه الوحيد الذى يستفيد منها من بين العالم أجمع يستمتع بنور الشمس ودفئها، كان عليه السلام يزور المرضى ويسأل عن الغائب ويشيع المتوفى، ويواسى الجريح ويهنئ صاحب النعمة، وتلك صفات القيادة الحكيمة. لقد ذهب مرة يزور سعدا فألفاه يعيش فى لحظاته الأخيرة فأخذ عليه السلام رأسه ووضعه فى حجره ثم قال: «اللهم إن سعدًا قد جاهد فى سبيل الله وصدق رسولك وقضى الذى عليه فتقبل روحه بخير ما تقبلت به روحا.

وكان لتلك الكلمات نسيم عليل غمر نفس سعد.

جاء فى الطبقات الكبرى أن رسول الله ﷺ نام فأتاه ملك أو قال جبريل - حين استيقظ فقال من رجل من أمتك مات الليلة استبشر بموته أهل السماء. قال لا أعلم إلا أن سعدا أمسى دنفا «عليلا» ثم سأل ما فعل سعد قالوا يارسول الله قد قبض، فخرج رسول الله ﷺ وخرجنا معه فأسرع المشى حتى تقطعت شسوع نعالنا وسقطت أرديتنا عن أعناقنا فشكا ذلك إليه أصحابه وقالوا يارسول الله أتعبتنا فى المشى، فقال إنى أخاف أن تسبقنا الملائكة إليه فتغسله كما غسلت حنظلة، فلما انتهى القوم من تجهيزه وحملوه قالوا يارسول الله ما حملنا ميتا أخف علينا من سعد، قال ما يمنعكم من أن يخف عليكم وقد هبط من الملائكة كذا وكذا قد نسى عددًا كثيرا لم يحفظها راوى الحديث.

قال أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه : كنت ممن حفر لسعد قبره بالبقيع وكان يفوح علينا المسك كلما حفرنا قبضة من تراب حتى انتهينا من اللحد وما من إنسان أخذ قبضة من تراب قبر سعد فذهب بها ثم نظر إليها بعد ذلك فإذا هى مسك .

لقد نظر الرسول ﷺ وقد حملت جنازة سعد وقال : لقد اهتز العرش لموت سعد .

ولقد أهدى لرسول الله ﷺ ثوب حرير فجعلنا نلمسه ونتعجب من نعومته فقال رسول الله ﷺ أيعجبكم هذا؟ قلنا نعم قال فمناديل سعد فى الجنة أحسن من هذا .

تلك عجالة سريعة عن رجل أسهم بفكره ورأيه وعمله فى دعم جوانب الخير فى المجتمع الإسلامى ، لقد كان مسلمًا حقًا . فلقد منع أذاه عن الناس وصان عرضه وجاهد فى الله حق جهاده ألان الكلام - وأطعم الطعام - وأحسن إلى من أساء إليه لهذا نال الخير الكثير واحتل الدرجات العلى ، وما عند الله خير وأبقى ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت : ٦٩]

وبعد..

فهذه قصص ثلاث قصصناها على شبابنا، ليأخذوا منهم العبرة فتكون نبراسًا فى حياتهم، وضوءا هاديا لهم على طريق الخير، الذى يوصل إلى سعادة الدنيا وفلاح الآخرة.

نضع هذا اللون أمام شبابنا ليكون ذلك زاد خير لهم على مواصلة السير لتدعيم القيم الأخلاقية العالية والمثل الكريمة والمبادئ الفاضلة وبذلك يسعد المجتمع ويغمره الأمن والاستقرار ويعيش الناس فى رحابة إخوة متحابين متعاونين تتنزل عليهم بركات السماء وتتفجر الأرض بالخير تحت أقدامهم، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء.

نسأل الله أن يتقبل ذلك منا وينفع به قارئه.

ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما، ربنا وتقبل دعاء.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه الأطهار وآل بيته الكرام.

الفهـرس